نقطة إنطلاق

نقطة إنطلاق

رواية

إبراهيم عبدالجليل الإمام

اسم الكتاب: نقطة انطلاق
اسم الكاتب: إبراهيم عبدالجليل الإمام
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: مروة صلاح
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الثانية – نوفمبر ٢٠١٩ م
رقم الإيداع: 2019 / 22587

للنشر والتوزيع
Arabic Library

١١٤ ع جنوب الأحياء – السادس من أكتوبر
Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

ت / ٠١٠٣٠٣٦٥٨٠١

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

تنويه

نقطة انطلاقي لم تكن شخصاً بل كانت كتاباً ..

رواية "ظلال غدامس" للكاتبة الفرنسية جويل ستولز

بعد قراءتها لم تعد حياتي كما كانت من قبل ..

إهداء

إلى مدينتي الثانية راس لانوف

.. مكان كان له أثر عظيم على مسيرتي ..

لولا أن سخر الله لي الإقامة بين أحضانها لما كتبت حرفاً واحداً .

١

الفراغ أهم ما يجعلك كائناً تلفزيونياً بامتياز ..

كنت محسوباً على مدمني القراءة .. لكن منذ سنوات تقلصت ساعات قرائتي حتى سجلت أسوأ أرقامها فوصلت إلى درجة الصفر .. صرت متابعاً جيداً لبرامج التلفزيون .. أستطيع أن أحكم بسهولة على أي برنامج بمجرد رؤية مقدمه .. ومقدمته .

لا أعلم لم يشدني هذا البرنامج لمتابعته دون غيره من البرامج ..

في كل أسبوع أتهيأ له وأنتظر وقت قدومه وظهوره .. كثيرون غيري يتابعونه لا شك في ذلك .. ليس مذيعه الأنيق سبب اهتمامي به ولا توقيت عرضه .. بل لما يطرحه من قضايا لا يطرحها غيره من البرامج ولا يقدمها سواه من الإعلاميين .

كما أن طريقة المذيع المختلفة عن الآخرين سبب كافٍ في نظري لأتسمر لساعة ونصف لمتابعته .. شريطة أن يكون إلى جواري كوب كبير من القهوة الثقيلة .

شيء واحد لا يعجبني فيه أعني مقدم البرنامج .. شنبه المشذب بعناية فائقة .. اعتنائه بتشذيبه يوحي لي بأن لشنبه مكانة مرموقة تضاهي مكانة برنامجه .. أما ابتسامته فهي أهم ما يميزه بعد شنبه .

كوب القهوة كان جاهزاً كالعادة قبل أن تنطلق تترات البرنامج الأسبوعي .. رشفتُ رشفة استعداداً للحدث الأبرز والوحيد في رزنامتي الأسبوعية .. شعرتُ بارتياح بعد أن ظهر المذيع ليرحب بنا نحن القابعين أمام الشاشات في انتظاره .

بالتأكيد هو يعلم مدى حاجتنا لظهوره على الأقل مرة كل أسبوع .. صار كنوع من الدواء لي .. ساعة ونصف من متابعته تمنحني قدراً كافياً من الأنس في وحدتي .

ابتسامة صغيرة تنمو على شفتي دون إرادة مني .. تركتها تنمو .. فلا ضرورة ولا حاجة لقمعها .

أعلم علم اليقين أن عيوناً كثيرة مسمّرة على شاشاتها الآن ..

يذكرني وضعي هذا بمباريات كأس العالم أيام كان نجم الأرجنتين مارادونا في تصاعد رهيب .. ليستقر في مدار أفضل لاعب

في هذه المجرة .. لا يمكنك أن تغمض عينيك ولو للحظة .. لو فعلت ذلك فسوف يفوتك شيء ما من سحره .. المشكلة أن إعادة المباراة لن تعوضك ما فاتك .. هذا ما يمكنني أن أصف به هذا البرنامج بكل تجرد .

هذا ما أشعر به الآن تماماً .

بنبرة صوته الجذابة وابتسامة تكشف عن صفين منتظمين ناصعي البياض من الأسنان .. لا أجد سبباً لتجاهل شركات معاجين الأسنان في استخدامه للدعاية لمنتوجاتها !

بدأ البرنامج ..

بكل عفوية ودون تصنع قال :

- آنساتي سيداتي سادتي ..

هذه كانت البداية .. كان على ثقة بأن كل من أشار إليهم في افتتاحيته ينتظرون برنامجه .. بل متسمرون مثلي في انتظاره .. يا له من واثق .. ثقته بنفسه تعجبني .. لكن شنبه المشذب يثير أعصابي ..

أضاف :

- حلقتنا اليوم ستكون مختلفة عن سابقاتها .

كل حلقاته تبدأ بهذه البداية .. كان دائماً ما ينجح في جعل حلقته أو موضوعها تبدو لك أنها جديدة .. طريقة تقديمه وطرحه هي الجديدة والجذابة وهي المختلفة عن تلك الطرق المبتذلة والقديمة التي يلجأ إليها غيره من الإعلاميين .. عادة ما يفشلون في شد المشاهد لمتابعتهم .. فيضغط بسهولة وامتعاض على زر التحكم للبحث عن قناة أخرى .

بهرجة .. تصنع .. ضيوف من الحجم الثقيل .

تكتشف بعد انتهاء البرنامج أنك لم تضف جديداً ولم تستفد شيئاً سوى ما قدمته الإعلانات في الفواصل الكثيرة ..

اقتربت الكاميرا من وجهه .. بدا شاربه أكثر وضوحاً وأناقة واستفزازاً ..

حاولت أن لا أفقد أعصابي ..

بدأ برنامجه قائلاً :

نقطة تحول ..

لابد أن في حياة كل منا نقطة تحول .. غيّرت هذه النقطة من حياته وقلبتها رأساً على عقب ..

تلك النقطة هي محور حلقتنا لهذه الليلة .

على الجدار المواجه لي علقت صورة بحجم كبير .. تجمعني بعائلتي .. كانت الشفاه ترسم ابتسامات عفوية للمصور .. لا أذكر من التقطها .. لكنه كان التقاطاً رائعاً .

لا أعلم لم نظرت إليها بمجرد فهمي لموضوع هذه الحلقة !

٢

أخبرتكم أن موضوعاته ليست جديدة .. لكن مع ذلك أنت مجبر على متابعته .. فلابد أنه سيتناولها من زاوية مختلفة .. تشعر بسلاسل تشدك إلى مقعدك .. يدك ثقيلة على الرغم من أن الريموت في يدك تعبث بأزراره لكنك لا تجرؤ على تغيير القناة .. هذا ما يمكن تعريفه بسحر الحضور أو الحضور الساحر .

لم يكن من صنف المذيعين الذين يعشقون الجلوس إلى مقاعدهم .. بل هو من تلك النوعية التي تجعل من الاستوديو ملعباً يتحرك فيه .. الصنف الأول مربوط بخيوط وخطوط خفية وظاهرة لغرفة تحكم تصله التعليمات من خلال تلك الخيوط والخطوط .. أما هذا النوع فهو مربوط بالكاميرات التي يواجهها فقط كأنه متفرغ لك وحدك .. لهذا تشعر بأنه صنيعة نفسه لا دمية بيد آخرين لا يظهرون لك .

قطع عدة خطوات قبل أن يواصل قائلاً :

- عليك أن تفتش في ذاكرتك عن نقطة تحول ما في حياتك .. البعض سيتيهون وربما يتأخرون في اكتشافها .. البعض سيتيهون لأنهم ببساطة سيدور بحثهم حول أكثر من نقطة .. عليهم اختيار واحدة فقط .. الأكثر تأثيراً هي نقطة التحول المطلوبة .. المحظوظون وحدهم يصلون بسرعة أعتقد أنك منهم .

أشار بسبابته إلى الكاميرا .. كان يشير بها لكل متابعيه .. إشارته تلك تجعلك تعتقد أنك وحدك المقصود بتلك السبابة .. تطلق العنان لخيالك لنبش الذاكرة والبحث عن النقطة المقصودة " نقطة التحول " .. من جديد توجهت بنظري للصورة على الجدار ..

لكنه لا يتركك وشأنك فيضيف بعد أن توجه بابتسامته لكاميرا أخرى :

- ربما تكون الزوجة أو الزوج .. فتش في الوظيفة فربما تجد غايتك .. ربما رحلة ما كانت لها التأثير الذي نعنيه .. صديق ما قد يكون نقطة التحول لا تهمل أحداً ولا تستثني حدثاً .. حادث سير أو رسوب في

امتحان .. حتى السلبيات في حياتنا قد تكون نقطة تحول نحو الأحسن .. هذه أمثلة فقط قد تساعدك على البحث عن نقطة تحولك .

غادرنا ..

تركني مشدوداً للشاشة لم أستطع عنها حولا ..

الفاصل الإعلاني اللعين حان وقته ..

هؤلاء التجار لا يتركونك تكمل استمتاعك دون أن يتدخلوا ليفسدوا عليك انسجامك ومتابعتك .. يعرضون عليك بضائعهم ويحاولون إجبارك على اقتنائها بشتى الوسائل على الرغم من عدم حاجتك لمعظمها .. أسترخي في مقعدي في انتظار عودته .. ربما هذا الفاصل يساعدني على الوصول للنقطة المقصودة ..

نقطة التحول .

رشفة من القهوة .. تطلق العنان لذاكرتي للبحث عن شيء ما كان سبباً لتغيير مسار حياتي .. أتململ في مقعدي بحثاً عن وضعية تساعد ذاكرتي على البحث بشكل جيد .

ينتهي الفاصل الدعائي ..

لأول مرة لا أنتبه لما يعرضه علي لشرائه واقتنائه .. ذهني لا يزال يجري بحثاً عن نقطة ما كانت فاصلاً وفيصلاً ومفصلاً في حياتي .. أستنجد بالصورة أعلى الشاشة .. أحاول رسم نفس الابتسامة التي نجح المصور في انتزاعها مني .. ذهني مشوش الآن سأحاول لاحقاً .

بعد أن فشلت في تحديد النقطة المطلوبة يعود المذيع بشاربه المشذب وابتسامته الواثقة ليستفيض في شرح فكرته ومساعدة متابعيه في البحث في تفاصيل الفكرة .

- تركناكم قبل الفاصل لتفكروا في نقطة التحول .. الآن علينا أن نحدد نوع هذه النقطة المفصلية في حياتنا .. لابد أن هناك الكثير من النقاط في حياة كل منا .. لكن واحدة منها كان لها دون غيرها تأثير .. هذا التأثير إما إن يكون بالسلب أو بالإيجاب .. ما سنبحث عنه الآن نقطة ما كان لها تأثير إيجابي على حياتنا .

ظل يدندن حول هذه النقطة طويلاً .. كان الكلام يتدفق من فمه بانتظام .. لم يُلق نظرة واحدة على الأوراق التي يحملها .. أجزم أنها فارغة لم يكتب على ظهرها شيء .. يحملها كنوع من البرستيج يصر عليه بعض المخرجين فقط .

داهمنا فاصل آخر بأسرع مما توقعت .. اللعنة على هذه السلع الهابطة المنفعة الباهظة الثمن .

طلب منا قبل أن يتيح الفرصة لتلك الإعلانات السمجة أن نبحث من جديد في ذاكرتنا بعد أن زودنا بأفكار كثيرة .. دبّ فيّ حماس ذكرني بشبابي ..

شربتُ من كوبي الذي برد من طول الانتظار .

بعد الانتهاء من الفاصل الإعلاني الذي مر بطيئًا هذه المرة أو هكذا أحسستُ به من فرط حماستي .. عاد المذيع بابتسامته وأوراقه وشاربه المشذب بعناية فائقة .. تحدث من جديد عن نقطة تحول مهمة في حياته هو .. ضرب بها مثالاً لنا ليساعدنا في طريقة الوصول لنقطة التحول الخاصة بنا .. اقترح اقتراحاً طريفاً قبل أن ينهي برنامجه ..

كان اقتراحه يتلخص فيما إذا كانت نقطة التحول لأي منا تتمثل في شخص ما .. كمعلم أو زوجة أو ربما زوج أو ابن أو صديق أو طبيب أو ما شابه فما عليك إلا أن تقدم له هدية رمزية تعبيراً عن الشكر والعرفان .. أو إرسال رسالة رقيقة عبر الهاتف أو الايميل أو أي نوع من برامج التواصل الاجتماعي .

أما اذا لم تكن لديك وسيلة للتواصل معه فالمطلوب منا ان نكتب منشوراً على صفحاتنا وحساباتنا نشيد به ونذكر له فضله .

الأمر لا يخلو من طرافة ومتعة .. رائع كعادته لولا هذا الشارب .

٣

نظرتُ إلى الساعة الجدارية .. كانت ساعة ونصف قد مضت دون أن أشعر بها .. بعض البرامج تجبرك على تغيير القناة بعد ثوانٍ فقط من مشاهدتك لها .. أما هذا البرنامج فيجعلك تتسمر أمام الشاشة ولا تجرؤ مهما أوتيت من شجاعة ولا مبالاة حتى على تبديل القناة

أثناء الفاصل الإعلاني الممل والمستفز .. بل حتى بعد انتهاء البرنامج .. تحتاج لدقائق طويلة حتى تستعيد نفسك من سحره .

تأثيره – أعني البرنامج – قريب جداً من تأثير مباريات كأس العالم .. عندما يتقدم فريق ما بهدف غير متوقع على الفريق الذي تسانده .. أو أحدى معارك الأفلام الأمريكية التي لا ينفذ رصاص أبطالها أبداً ولا يموتون ودائماً يجدون حلاً لما يورطون فيه أنفسهم .

إنه يضعك تحت تأثير وسحر " الإثارة " .

انتهى البرنامج .. لكن تأثيره لم ينته بل كان على العكس تماماً انشغل ذهني بالفكرة الجديدة .

استلقيت تلك الليلة فوق سريري بحثاً عن نقطة تحول في حياتي الطويلة .

كان الأمر صعباً ومسلياً ومثيراً في نفس الوقت .

استعرضت عشرات المواقف التي تصلح أن تكون نقطة تحول .. استبعدتها كلها .. لم أجد فيها ذلك التأثير الذي أشار إليه صاحب البرنامج .. إنها لا تصلح كنقاط تحول في حياتي .. كانت مواقف عابرة على كل حال .

لم أكن أتصور أن الأمر بهذه الصعوبة ..

كان عليّ إعادة شريط حياتي كله .. اعتقدتُ في بادئ الأمر أن ذلك لن يستغرق سوى دقائق معدودة .. لكن الدقائق تمر وتلك النقطة اللعينة لا تلوح في الأفق .

تحرك عقرب الساعة رقماً إضافياً في ساعة الجدار ..

غادرت سريري .. لن أتمكن من النوم وفي ذهني كل هذا التشويش .. إنها طبيعتي .. أنا والأرق خصمان متلازمان منذ أن فرغ هذا البيت من ساكنيه وتركوني وحيداً .

أعددتُ كوباً آخر من القهوة الثقيلة علها تساعدني في الوصول للنقطة المرجوة .. صداقتي القديمة مع الكافيين والمنبهات ستذلل تلك الصعاب وتزيل ركاماً من الذكريات لتنجلي نقطة تحولي واضحة ساطعة .. هذا ما توقعته أو تمنيته على الأقل !

استرجعتُ الكثير من الذكريات .. سار شريط ذكرياتي بسرعة مذهلة .. استرجع لي أحداثاً كانت طي النسيان ما زاد من تقلبي في الفراش .. كنتُ على يقين ذات يوم أنها كانت سبباً رئيسياً ومهماً ومؤثراً في مشوار حياتي الطويل .. بعض تلك الذكريات كان قريب العهد .. أما بعض الأحداث فكانت موغلة في القدم .. لدرجة أن مسحة من الشك شابتها .. عجزتُ عن الجزم بأني كنتُ ذات يوم أحد أبطال تلك الأحداث التي تلوح في مخيلتي الآن .. تُصر على التجسد من جديد .

يبدو أن هذا ما كان الغرض من الحلقة .. العودة بالذاكرة إلى الماضي .. والتفتيش في خباياها .

لم ينتج عن تفتيشي هذا إلا مزيداً من الخيبة والتشويش .. وسيصحبه أرق كذلك .

أحسد أولئك الذين ينامون بعد متابعة هذه الحلقة دون أرق أو قلق أو مواجهة أي صعوبة للاستغراق في نوم عميق .. كما إني أحسد الذين سيبتسمون ويعتبرون الأمر مجرد تسلية .. أما أولئك الذين وصلوا وحددوا نقطة تحولهم فهم الجديرون بالقسط الأكبر من حسدي واستغرابي واحترامي .

عقلي الباطن كان يخفي الكثير من الأشياء بين طياته .. منها المخجل ومنها المخيف ومنها المريب .. لم أكن أعلم أن كل ذلك كان يحتاج لحضور حلقة من برنامج تلفزيون لتعود من جديد لتطفو على سطح الذاكرة ..

هذا المذيع اللعين أعاد ترتيب ذكرياتي .. صارت هذه في أول الترتيب لتمحيصها والتدقيق فيها من جديد ..

يا له من ماكر لقد قذف بحجرٍ كبيرٍ فتحرك ما ركد من ذكرياتي .. سأحتاج لوقت طويل لإعادة ردمها ودفنها وطمسها .. ربما سيصعب علي ذلك .. هل تعمد ذلك أم كان مجرد صدفة ؟

تباً ....

نمتُ قبل أن أصل لتلك النقطة التي كانت سبباً في تحولي ..

٤

في الصباح استيقظتُ مرهقاً متعباً .. بحثتُ عن سبب ذلك .. تذكرتُ سهادي وأرقي طوال الليل .. نظرتُ إلى الساعة .. كانت عقاربها تفيد أني تأخرتُ عن موعدي اليومي في الاستيقاظ .. لا بأس ببعض الكسل هذا اليوم بعد عناء ليلة البارحة .

أسرعتُ بأداء صلاة الصبح قبل فوات أوانها .. صنعت بعدها كوباً من القهوة .. لم تعد لي القدرة في التحكم في أفكاري .. كلها تبحث في أنحاء الذاكرة عن نقطة مجهولة .

رميت الكتاب بعد دقائق معدودة من شروعي في القراءة .. لم افهم شيئا مما قرأت .. كان عقلي هناك يعمل في نبش الماضي بمعاول مزعجة .

تناولتُ الريموت كنترول .. كانت الإعادة الصباحية لحلقة البارحة على وشك البدء .. ربما إعادة مشاهدتها تفيدني في الوصول للنقطة المرجوة المستعصية .. أعلم أن هذا الموضوع سوف يستغرق

ويستحوذ على كامل تفكيري اليوم .. لن تتوقف تلك المعاول في النبش حتى تصل إلى غايتها .. أرجو أن لا تتأخر .. فقد أزعجني حفرها ونبشها .

حياتي هذه التي أحياها الآن ما هي إلا نتاج نقطة تحول ما .. لابد من اكتشافها .. ليس من أجل إرسال هدية أو رسالة فحسب ولكن من أجل المعرفة أيضاً .. لا أعلم كيف لم يخطر ببالي أن أطرح مثل هذا السؤال على نفسي من قبل ؟.. خاصةً أن حياتي مرت بالكثير من النجاحات والتطورات لأصل بعدها إلى هذه المكانة الاجتماعية الرفيعة التي يحسدني عليها الكثيرون .

الفضول هو الداء الذي عجز الأطباء عن علاجه .. ها أنا أقع فريسة هذه العلة المستعصية .

كم هم مترفون أولئك اللامبالون !

لا يعلمون النعيم المقيم الذي يرتعون فيه .

بدأت الحلقة المعادة .

نظرت لصورة العائلة المعلقة بالجدار .. ابتسمت لها في بلاهة .

ظهر المذيع بشاربه وأوراقه وابتسامته .. انطلقت الحلقة من جديد .. تابعتها كمن يتابع حدثاً لأول مرة .. ربما درجة انتباهي زادت عدة "رخترات" عن مشاهدتي الأولى لها .

- آنساتي سيداتي سادتي .

انطلقت الحلقة من جديد .. استغرقتُ وغرقتُ فيها .. أنستني تناول إفطاري الصباحي .

مضى وقت الحلقة دون أن أشعر به .. كنتُ غائباً فيها مغيباً عن حاضري .. عقلي الباطن كان يعمل بينما باقي حواسي منتبهة للحلقة المعادة .. لم أشعر حتى بتلك الإعلانات المقيتة .. نظرتُ إلى ساعة الجدار عندها فقط اكتشفتُ أن الحلقة انتهت منذ أكثر من ساعة !

- أووه .

كانت تلك الصيحة المعتادة في حال ارتكبت خطأ ما .

تحرر عقلي الظاهر من سيطرة عقلي الباطن .. عدتُ إلى واقعي .. ربما الجوع كان سبباً في هذه العودة .. التهمت إفطاري على عجل .

خرجت من البيت لشراء بعض اللوزام الضرورية .. لم أتمكن من التخلي عن نقطة التحول .. ربما التعبير الدقيق هو أني لازلت واقعاً تحت تأثير فكرة البرنامج .. لم أتحرر تماماً على ما يبدو من سطوة عقلي الباطن الباحث في غياهب الذاكرة .

ما هي نقطة تحولي ؟..

ربما يساعدني المشي قليلاً في الوصول إليها .. كانت إحدى أهم وسائلي القديمة للتفكير في أي معضلة أو مشكلة أقع فيها هي السير قليلاً .. ذلك يمنحني بعض الصفاء .. عادة ما تنجلي المشكلة وتتفتت ويسهل حلها بعد ذلك .. لكن هذه المرة لا تزال المشكلة لم تتفتت على الرغم من أني قد قطعت عدة كيلو مترات دون أن أشعر أو أتعب أو أصل للنقطة .. لا داعي للمزيد

عدتُ أدراجي .. لا يزال السؤال يطرق مضاجع ذاكرتي بإلحاح :

- ما هي نقطة تحولي ؟..

٥

وصلت إلى البيت محملاً بعدة أكياس محشوة بالأغراض التي تنقص الثلاجة .. لا أعلم كيف ولا من أين اشتريتها ؟ .. كنتُ منقاداً بعقلي الباطن على ما يبدو طيلة رحلة خروجي .

أعددتُ كوباً كبيراً من القهوة ..

بعد أن تخليت عن التدخين في وقت مبكر من شبابي صارت القهوة بديلي المفضل ورفيقتي الدائمة .. استبدلتُ لفافة التبغ بكوب قهوة .. هكذا يتندر أصدقائي .. ربما الفارق الوحيد بينهما هو أن القهوة لا تفسد أجواء البيت كما تفعل سحب الدخان ..

اختليتُ بكوبي في صالون البيت ..

لابد أن أصل إلى تلك النقطة اللعينة .

تذكرت ألبومات الصور .. ربما تصفحها ينشط ذاكرتي المنهكة ويصفي ذهني المشوش .

تناولتها من الرف الذي تقبع فيه .. مرت أكثر من سنة على آخر مرة تصفحتها .. رتبت الصور على نسق تصاعدي .. في الحقيقة إنها فكرة ابنتي ..

لم أكن أهتم لمثل هذه الجزئيات .. لكنها تهتم بكل كبيرة وصغيرة في حياتها وحياة المحيطين بها .. لهذا كان لمغادرتها البيت بعد زواجها وقع سيء على نفسي .

يجمع ألبوم الصور الأول معظم مرحلة الطفولة والمراهقة والشباب .. تأملتها بشيء من البهجة .. أيام لا يمكن أن تعود .. والغريب أن الجميع يتحسر على أيام الطفولة .. سألت صديقاً ذات مرة عن ذلك فأجاب :

- إنها مرحلة البراءة .. يحن إليها الجميع بعد أن تتسرب من أنفسنا هذه البراءة لتحل محلها أشياء أخرى .

أظنه أصاب في تحليله .. أليس كذلك ؟

تدرجت الصور .. تباينت معها التغيرات التي طرأت على شكلي الخارجي .. ميزة الصور الفوتوغرافية أنها ترصد حالتنا من الخارج

فقط .. ملابسنا تسريحات شعورنا .. ربما خيط مخاط يتسرب هارباً دون أن نحسن التحكم فيه ..

لكن يعاب عليها أنها لا يمكنها الغوص في أغوار النفس البشرية لتسجل الحالة التي التقطت فيها الصورة .. حتى الصور التي سجلت عبوساً أو غضباً ففيها من البراءة والعفوية الكثير ..

صدق الشاعر الذي قال ذات يوم :

ألا ليت الشباب يعود يوماً ... فأخبره بما فعل بي المشيب .

لابد أنه مر بحالة أسوء من التي أعانيها الآن ليقول مثل هذا البيت الشعري البليغ الذي صار خالداً .. ويتحسر الجميع أثناء ترديده على عمر ضاع سدىً وعلى شباب مهدور .

واصلت تفحص الصور .. نقطة تحولي ليست في هذه المرحلة بالتأكيد .. لكني واصلت مشاهدة نفسي ورفاقي في تلك المرحلة البعيدة البريئة قبل أن أصبح أنا الذي يبحث عن شيء لا يعلم أين يجده؟

شربت من كوبي وانتقلت لتصفح ألبوم آخر ..

الألبوم الثاني لم ينتقل لمرحلة أخرى .. فقط عدة سنوات أخرى من مرحلة المراهقة .. صور في فناء المدرسة التقطها شخص ما ولا أعلم كيف تحصلت على نسخة منها ؟ .. صور في ملعب المدرسة .. استوقفتني الصورة كثيرا .. حاولت تذكر أسماء فريقنا المدرسي دون جدوى .. فقط اسمين علقا في الذاكرة وتلاشى الباقون .

صور أخرى في الأعياد والأعراس .. كلها صور أقل براءة من سابقاتها في ألبوم الأول .. مع مرور الوقت نكتسب الخبرات اللازمة لنا في الحياة بينما نتخلى عن أهم شيء ولد معنا .. إنها البراءة ..

عقارب الساعة الجدارية البيضاء تؤكد أنها قد اجتازت عدة أرقام وأنا قابع في جلستي هذه دون نتيجة تذكر .. ما عليّ فعله الآن هو طرد هذه الفكرة من رأسي نهائياً .. عليّ انتظار الحلقة القادمة من البرنامج لعل ذلك المذيع اللعين يأتي بشيء جديد يمكن أن يعينني في الوصول أو على طرد هذه الفكرة ..

أمامي ستة أيام كاملة حتى يحل موعد البرنامج .

يا له من وقت طويل !!

عليّ أن أفكر بالهدية المناسبة كذلك .. مشكلة الهدية تتوقف على شخصية نقطة التحول .. سوف يتأخر تحديد الهدية إلى حين الوصول لنقطة التحول ومعرفة جنس صاحبها أولاً ..

يا لك من برنامج ويا لها من ورطة .

جرس الباب الخارجي يرن .. يرن في إلحاح .

٦

لم أكن أنتظر أحداً ..

إنه ليس موعد زيارة أبنائي وأحفادي الأسبوعية .

حتى الجيران لم أتعود أن يطرقوا بابي أو أطرق أبوابهم .. نكتفي باللقاء صدفة في الشارع أو السوق المجاور لتبادل التحايا وبعض الحديث .. حتى قاريء عداد الكهرباء لم يحن أوان قدومه الدوري ..

من يكون هذا الطارق ؟.

للوصول إلى إجابة دقيقة لابد من فتح الباب .

نهضت في تكاسل .. فتحتُ الباب .

كانت ابتسامته أول ما أثار انتباهي .. رحبتُ به كما تقتضي اللياقة والأصول .. بادرني بسؤال :

- هل تسمح لي بدقائق من وقتك ؟

أشرت موافقاً برأسي .. هذه الملامح ليست غريبة عني .. لكن يصعب علي التعرف على صاحبها .. مازلتُ أتفحص ملامحه علّي أن

أتوصل إلى شخصه قبل أن يقوم بمهمة التعريف بشخصه .. تباً لذاكرتي .. دائماً ما تخذلني وقت الحاجة .

لم أتبينه حتى بعد أن ذكر اسمه .. لم تكن بهذا السوء من قبل .

رحبتُ به كما تقتضي الأصول والأعراف .. من الواضح أنه لم يأتِ ليقف على بابي .. أفسحتُ له الطريق ليدخل .. كان يحمل طرداً كبيراً مغلفاً بورق الهدايا أحمر اللون معقود بشريط أنيق .

لاسمه وقع ما على سمعي .. كأني أعرفه من قبل !!

جلسنا في غرفة الاستقبال .. أحمد الله أنها مرتبة في هيئة مقبولة لرجل يقيم وحده منذ سنوات ويعاني ضعفاً في الذاكرة ..

استأذنته لتجهيز ما يليق بضيافته .. عدتُ بعد دقائق بكأسين من العصير البارد هذا كل ما وجدته لائقاً للتقديم .. لسوء الحظ أن موعد تسوقي الأسبوعي لم يحن بعد .

جلستُ قبالته .. ابتسم بعد أن رشف رشفة من كأسه .

بدأ بعدها في توضيح سبب قدومه وزيارته .

- لا أعتقد أنك تذكرتني .. مر وقت طويل على آخر مرة التقينا فيها .. ربما نسيت اسمي فلم ألحظ أنك تعرفت عليه بعد أن نطقت به .

المسكين لا يعلم أني مصاب بداء النسيان من فترة طويلة .. بعضهم يعتبر هذه ميزتي الوحيدة التي يحسدني عليها .. لا يعلم أني كنت سأنساه حتى لو التقيتُ به قبل أسبوع وليس بعد سنوات كما أشار .. حاولتُ الاعتذار كما يتطلب الأمر لمن يقع في مثل هذا المطب قائلاً :

- للعمر أحكامه .

لم تكن حجة مقنعة خاصة أنه قريب من عمري هذا ما تبوح به ملامحه .. أضاف محتفظاً ببشاشته وابتسامته كاملة غير منقوصة :

لابد أنك متابع لبرنامج الإعلامي المتميز الشهير .. من في مثل سننا لابد أنهم يهتمون بمثل هذه البرامج الهادفة .. أنا من أشد المعجبين بحلقاته وأتفاعل كثيراً معها .. حلقة الأمس كانت مميزة ومثيرة .. ربما كانت أفضل حلقاته على الإطلاق .. فكرتها مميزة ورائعة .. أعتقد أنك توافقني على ذلك .

- نعم .. شرائح عديدة تهتم بما يقدمه هذا الإعلامي اللامع .. ربما الوحيد الذي يحظى برنامجه بنسبة مشاهدة عالية .. لكن لا أعلم مدى تأثيره على الآخرين .. أنا أيضا أتفاعل في كثير من الأحيان مع ما يقدمه .

- لابد أنك تابعت حلقة الأمس ؟ ..

- نقطة التحول ؟

- أجل .. فكرتها رائعة .. لم أنم البارحة .. كنتُ مصراً على الوصول لنقطة التحول الخاصة بي .

- هل وصلت ؟

رشف من العصير قبل أن يجيب :

- هذا سبب حضوري إليك .. لم يكن صعباً الاهتداء إلى عنوانك .. فشخصية مميزة مثلك من السهل الوصول إلى عنوانها .

حان دوري في شرب العصير .. يبدو أنه المهرب الوحيد من الحرج :

- شخصية مميزة ! .. لا أعتقد أني سأوافقك على هذا الوصف .. فلست إلا من آحاد الناس .. أنا لم أتمكن بعد من تحديد نقطة التحول الخاصة بي .

- الأمر بحاجة لمراجعة ذكرياتك بهدوء .

- راجعت أطناناً منها .. لم تسعفني الذاكرة بما يمكن وصفه بنقطة تحول .. تشابه الأمر عليّ .. اسمح لي بسؤالك عن نقطة تحولك ..

رشفنا من العصير في نفس الوقت .. سألته :

- أنا بالكاد أذكرك فكيف كنتُ سبباً في تحولك ومتى كان ذلك؟

بدا عليه بعض الحرج .. رشف من كأسه مرة أخرى .. كان واضحاً أنه يتخلص من بقايا حرجه أو يستجمع شتات شجاعته .. كان إحساساً بالفخر ينمو في داخلي لأني كنتُ نقطة تحول في مسار حياة أحدهم ..

- في الحقيقة كان ذلك منذ زمن بعيد .. ربما لا تذكر الموقف لأنه قد لا يعني لك شيئاً .. لكنه لم يغادر ذاكرتي قط .. ولأنه صار يعني لي كل شيء .. هل تذكر مدرسة الأخلاق الحميدة الثانوية ؟

- أذكرها .. كنتُ تلميذاً فيها ذات يوم .
- كنا نتخذ من ملعبها متنفساً لنا كل مساء .
- صحيح أذكر ذلك .. كانت المكان المفضل لنا للعب الكرة وإقامة البطولات الرمضانية والموسمية .. لكن ذلك كان منذ سنوات طويلة خلت .. ربما تجاوزت الخمسين سنة آو تقترب من ذلك .
- نعم لكن ذلك لم يكن عائقاً من أن أحتفظ بتلك الذكرى طوال تلك السنوات .. فبعدها تغيرت حياتي تغيراً جذرياً .

٧

لم أرغب في مقاطعته .. واصل حديث ذكرياته :

- كان يوم عادياً كسائر الأيام .. لم أكن مهتماً بدراستي إلا بالقدر الذي يمكنني من النجاح والانتقال لصف دراسي جديد .. كانت الكرة تحظى باهتمامي الأكبر .

- في تلك الفترة كان للعب الكرة طعم خاص ونكهة مميزة .

لم يعبأ بتعليقي .. استمر قائلاً :

- تلك السنة التقينا في المباراة النهائية لدوري رمضان .. كان توقيت المباراة مساءً قبل الإفطار كالعادة .. لم تكن الأضواء الكاشفة متاحة حينها .. أما أسوار المدرسة المحيطة بالملعب فكانت مكتظة ومزدحمة ومرصوصة بالمتابعين .. أما حواف الملعب فطوقها الجمهور وحاصرها .. بالكاد يتسع لنا الملعب للركض .

- كانت أياماً حلوة جميلة رغم ما فيها من معاناة .

- تلك المباراة كانت حامية الوطيس .. كان فريقي يحاول انتزاع اللقب من فريقكم .. كان فريقكم يستحوذ على جل البطولات الرمضانية .. كلفتُ من قبل زملائي بمراقبتك ومتابعتك .. فشلتُ في ذلك .. فهدف المباراة الوحيد كان من توقيعك .

في الحقيقة أذكر الكثير من تفاصيل تلك الحقبة لكن وجهه الوحيد الذي يأبى أن يظهر في ذاكرتي .. كما إني أذكر تلك المباراة .. كان هدفي بضربة رأسية محكمة .. بعد أن أنهي الحكم المباراة لم نتسلم الكأس كما يفترض في كل البطولات .

قاطع سلسلة ذكرياتي قائلاً :

- بعدها حدثت مشاغبة وعراك بين الفريقين وجمهورهما .

- هكذا كانت تنتهي مباريات تلك الأيام .

- كل لاعب من الفريقين كان عليه أن ينهي فاصلاً من العراك مع أحد لاعبي الفريق المنافس .. كنتَ أنت من نصيبي بحكم مراقبتي لك وقربي من مكان وقوفك .

- يا لها من أيام .. كان العراك فيها أحلى من المباراة وأكثر إثارة .. والجميع ينتظر من يطلق الشرارة لتنطلق بعد ذلك مباراة أخرى من نوع آخر لها جمهورها وعشاقها ومنتظروها .
- مع هذا لم نكن نتبادل الضغائن ولا الأحقاد .
- كانت الحياة تسير في أعنتها إلى موعد جديد .

هذه المرة استوقفه تعليقي .. أردف بعده قائلاً :

- لكني لم أتحمل أن أغلب مرتين .. مرة في المباراة ومرة بعد المباراة .. فقد لكمتني لكمة أطاحت لي ضرساً وسنين .. هههه هههههه .

هل جاء ليقتص من تلك اللكمة يا ترى ؟..

ما الداعي لاستحضار هذه الذكرى وما علاقتها بما نحن فيه ؟

مر وقت قصير .. ساده صمت وترقب .. بعدها قال مجيباً على تساؤلاتي كأنه سمعها مني :

- كان ذلك سبباً مباشراً لتركي لعب الكرة إلى الأبد .
- الآن فقط أشعر كم كان الأمر قاسياً .. لم أكن أتخيل في أسوء الاحتمالات أن يصل الأمر إلى هذا الحد .. أذكر أني نلتُ ذات يومٍ

نصيباً وافراً من اللكمات .. لكن هذا لم يمنع من مواصلتي للعب الكرة إلى سن متأخرة .

كان من المستحيل أن أتخلى عنها لسبب كهذا على كل حال .

- يبدو أن حساسيتي كانت مفرطة .. ربما إحساسي بالذنب ولوم رفاقي وتحميلهم لي وحدي سبب تلك الخسارة ضاعف من حساسيتي هذه .. توقفتُ نهائياً ليس عن لعب الكرة فحسب .. بل حتى عن مشاهدتها .. صارت حياتي فراغاً في فراغ .. كانت ممارسة الكرة ومتابعتها تشغل حيزاً كبيراً من حياتي .. بعد هجري لها أحسست بالفراغ .. فراغ هائل .. كدتُ أتراجع عن قراري في أكثر من مرة .. لكني قاومت لحظات ضعفي .. كنتُ أتحسس مكان ضرسي المفقود لأتمكن من التخلي عن فكرة العودة .هههه .

- لم يكن الأمر يستحق كل هذا العناء .

تجاهل تعليقي من جديد .. قال :

- كان لابد من شغل هذا الفراغ لأتمكن من المقاومة .. هنا كانت نقطة التحول يا صديقي .

صديقي !! لا أعلم إن كان يتهكم .. قلتُ:

- جميل .. صار الأمر مشوقاً الآن بعد أن كان مخجلاً لي .

- كنتُ أبحث عن وسيلة لشغل الفراغ الكبير الذي أعانيه .. فتوجهتُ مكرهاً للاهتمام بالدراسة .. لم يكن أمامي خيار آخر غيرها .. لم تكن هناك وسائل أو بدائل أخرى .. كنتُ أدرس – كما أسلفت – بالكاد ما يجعلني أنتقل من صف لآخر ..أما التفوق لم يكن من أولوياتي ولا اهتماماتي .. كان هناك في نظري ما هو أهم وأجدر بالاهتمام .. أما بعد تلك الحادثة تغير الكثير .

بعد ذلك تفوقت على نفسي .. فلم يعد هناك ما يشغلني سوى الدرس .. شعرتُ أن هذا الميدان يمكنني أن أتفوق فيه دون الحاجة إلى عراك بعد نهاية كل مباراة .. بل لن أخسر سناً من أسناني أو ضرساً .. ولن يحملني أحد أي مسؤولية على الإخفاق هيئ هيئ.

كان يضحك في مرارة .. أضاف بعد برهة :

- واصلتُ تفوقي في الجامعة أيضاً .. كان ذلك سبباً في ما أنا عليه الآن من صيت .

- الآن تذكرتك أنت الطبيب الشهير .. كيف فاتني معرفة ذلك من البداية ؟.

كنتُ طوال الوقت أبحث في ذاكرتي عن رابط بين الاسم والشخص الذي أمامي .. الآن اجتمعت في ذهني كل عناصر الصورة..

أضاف :

- تلك المباراة كانت سبباً لما أنا عليه الآن من شهرة وتفوق .. كانت نقطة تحولي ..
- لو انتهت تلك المباراة دون لكمات لربما كان لك مستقبل آخر .

تبسم لمزحتي وتقبلها .. قال :

- لن يكون حسناً بمثل ما أنا عليه الآن .. شكراً لك .. وأرجو أن تتقبل هديتي المتواضعة .

غادر سعيداً ..

أما أنا فتركني أسبح في بحيرة من الخجل تكاد تغرقني.

لكمتي غيرت مسار حياته يا له من أمر مخجل .

لو كنتُ من تلقى تلك اللكمة فهل تغير مجرى حياتي ؟

نظرتُ إلى هديته القابعة فوق الرف .. ملفوفة في ورقها الأحمر

يا ترى ماذا في جوف علبته ؟

٨

لا أستطيع أن أحدد كم مرّ من الوقت بعد أن غادر ..

كنتُ غائباً عن الحاضر .. عادت بي الذاكرة إلى تلك المباراة .. عشت أجواء شهر رمضان من جديد .. الجمهور يحاصر الملعب والحماسة بادية على الوجوه .. لاحت لي تفاصيل دقيقة من تلك المباراة .. لا أعلم كيف طوتها الذاكرة كل تلك السنين كما أجهل كيف أعادتها بتفاصيل دقيقة ..

أماط عنها غطاء النسيان بزيارته لي وحديثه عنها .. أشياء كثيرة طافت في ذاكرتي المنهكة من كثرة البحث عن نقطة تحول تأبى أن تلوح لي وترحمني .. حاولت من جديد عصرها علها ترضخ .. لكن كل ما منحتنيه هو أحداث ذلك اليوم الرمضاني .

تذكرتُ تلك الهجمة التي جاء منها الهدف الوحيد الذي عرفنا كيف ندافع عنه .. كنا ندافع بشراسة ليس عن هدفنا الوحيد بل عن تاريخ فريقنا العريق .. لم يكن أول انتصار رمضاني .. لكننا لا نريد أن

يكون أول إخفاق .. سمعتنا على المحك .. هم يبحثون عن أول تتويج لهم وهذا لن يكون إلا بتسجيل أول إخفاق لفريقنا .. هكذا هي الدنيا أشبه بمباراة رمضانية .. ليسوا وحدهم من كان ينتظر إخفاقنا بل كثيرون غيرهم .. فالشامتون ينتظرون فرصة لإظهار شماتتهم .. بما أنك تنتصر فالمحتفلون معك كثر .. ستعرف حجمك الحقيقي بعد أول إخفاق .. هذا ما لن نسمح بحدوثه .. لهذا كنا نقاتل بشراسة ضد المتربصين للشماتة أولاً وما أكثرهم ثم من أجل أن نفرح بالنصر .

اجتاحتني نوبة من الحماس .. ها هو حكم المباراة يطلق صافرته منهياً أحداث المباراة .. كان من المفترض أن نبتهج بفوزنا بالكأس الرمضانية التي يحرص الجميع على انتزاعها من بين أيدينا .. لكن دون شعور منا جميعاً كان هناك من يفكر بطريقة أخرى .

خسارة الكأس قد تعوض بطرق مختلفة .

التحم الفريقان في عراك بالأيدي ..

تذكرتُ الآن ما حدث .. بعض التفاصيل لاحت واضحة أمامي الآن .. إنزاح آخر غطاء كان يحجبها .. كأنه قد حدث قبل أيام قليلة وليس قبل عقود مديدة .

كنتُ مسرعاً أهمُ بالخروج من أرض الملعب تفادياً لجولة العراك المعتادة .. لم أكن من عشاق هذا النوع من البطولات .. كان الأقرب لي من باقي الخصوم .. لم تتغير ملامحه الطفولية كثيراً .. فقط شارب وبعض خصلات الشيب وشيء من الوجاهة أضفتها السنون عليه .

لا أعلم كيف امتدت يدي لتلكمه تلك اللكمة .. ربما كان ينوي الشيء نفسه فكنتُ فقط أسرع منه .. سقط على الأرض .. لا أعلم ما حدث بعدها فقد غادرت الملعب .. هذا كل شيء .. لم أعتذر عن لكمتي .. لم تكن هذه الأشياء ممكنة حينها .. لم نتعودها هذا كل ما في الأمر .. لو لم ألكمه لما صار طبيباً شهيراً .. يا للمفارقة !..

صار مديناً لي بالشكر على لكمتي يا للسخرية !

عدت لمجموعة ألبومات الصور الموضوعة على المنضدة .. تناولت إحداها ..

هذا البوم يضم مجموعة مهمة من الصورة تؤرخ لهذه المرحلة .. إنها مرحلة الشباب والعنفوان .. كان لابنتي ذائقة رفيعة في ترتيب الصور .. هذا ألبوم لا يضم صوري فقط بل صور كل أفراد العائلة في نفس هذه المرحلة العمرية .. بطبيعة الحال ستكون صوري هي التي تتصدره .

لا أذكر أني كنت من عشاق التصوير .. لكن أحد رفاقي كان كذلك .. فهذا العدد الكبير من الصور في تلك المرحلة من الواضح أنها التقطت بنفس الكاميرا وبمهارة مبتديء في فن التصوير ... لكنه صنع لنا إرشيفاً محترماً .. أغلبها كان في ملاعب الكرة وبعضها في رحلات الترفيه .. قلة قليلة في أنشطتنا المدرسية .. كان هذا قبل انتشار الكاميرات في كل مكان وجهاز ..

ها هي صورة فريقنا في تلك الحقبة .. قد تكون نفس السنة التي يتحدث عنها زائري .. ابتساماتنا تملأ وجوهنا ..

ابني الأوسط أكثر أبنائي شبهاً بي .. ليس في الشكل فحسب حتى في عشقه للعب الكرة .. لا أعلم إن كان وضع صورة له ضمن

فريقه إلى جانب صور لي مع فريقي مصادفة .. أخته هي من فعلت ذلك فهي مولعة بالتصنيف والترتيب .. الغريب أنه يقف في نفس المكان المفضل لي الوقوف فيه للالتقاط الصور .. نفس الابتسامة .. لكن الفرق كان شاسعاً في شكل الصورة وفي هيئاتنا .. حتى ملتقط صورهم كان أكثر من هاوٍ .. كانوا أكثر حظاً منا .

أعتقد أنه يفوقني موهبة ولكني لن أعترف بذلك أمامه على كل حال .

لحظة .

في ذلك الوقت – وقت شبابي- كان لعب الكرة نوعاً من العبث .. لا تقدير للموهبة .. ولا أحد يأبه لها .. بل الكل يسعى لتحطيمها وإيقافها بحجة المستقبل .. في عالم آخر ودنيا أخرى كل شيء مختلف هناك .. موهبة لعب الكرة تعتبر منجما يدر ثروات هائلة ليس على صاحب الموهبة فقط بل على مستثمريها .. اكتفينا من هذه الهواية ما دخل في صدورنا من الأتربة وما تعرضت له أجسادنا من الإصابات وما تعرضنا له من ضرب وشتم وسب ..

كنت أحاول أن أفرض رؤية جيلي عليه .. لكن أمه كانت لي بالمرصاد على غير المتوقع أو المعتاد .. فهن أكثر حرصاً على مستقبل الأبناء .. معظم الناس يعتبرون المستقبل المبهر أن يكون الإنسان طبيبًا او مهندسًا أو ما شابه من مهن .. لم تكن الرياضة من ضمنها ولم تكن مهنة تمتهن بعد .

لكن شغفه بها وحبه لها وبراعته فيها أجبرتني على التزام الصمت ومتابعة الأمر من بعيد بعين تبدو غاضبة في حين أنها راضية كل الرضا على ما يقدمه في مجال أحبه ودافع عن رغبته فيه بمساعدة أمه .

لم أكن في شبابي أملك نصف شجاعته هذه ولا أعتقد أنه يملك نصف موهبتي في الكرة .. لكن لتنجح في هدفك وفكرتك لابد أن تؤمن بها .

نجح كثيراً وتفوق في اختياره وهذا من حسنات صمتي وعدم عنادي وإصراري على فرض رأي .. لم أكن أملك شجاعته هذه في شبابي .. ربما قليل منها كان كافياً لجعلي نجماً كروياً يشار إليه بالبنان .

نظرت إلى صورتنا الجماعية المعلقة على الجدار ...

كان موقعه في الصورة بيني وبين أمه .. أذكر إصراره على أن تعلق هذه الصورة بالذات في صدر البيت .. فهي الوحيدة التي يقف فيها بيننا ..

لأمه فضل كبير فيما وصل إليه الآن .. هي من أصرت على منحه فرصته كاملة .. وعدها أن يطيع أوامرها ويرضخ لخياراتنا في حال فشل في تجربته .. كنتُ أنتظر فشله لأوبخه .. وكي أثبت له صحة رؤيتي .. لكن أمه كانت تنتظر نجاحه .. لتثبت له مدى ثقتها بموهبته قبل أن تثبت لنا أن الفكرة الصائبة تحتاج لشجاعة كبيرة للدفاع عنها ولا يكفيها أن تكون صائبة فقط .

الطريف أنه دائمًا ما يشير في أحاديثه مع الصحافة بأني سبب ما هو فيه الآن من تألق وتفوق ..

رحمها الله .. كانت هي صاحبة الفضل .. عرفت كيف تخرج من داخله احسن ما فيه ..

عدت لتصفح ألبوم الصور ..

هذه صور قديمة لبطولاتنا الرمضانية .. لا شك في ذلك .

هذه الصورة ملتقطة أثناء أحداث مباراة ما .

لا أتذكر أني رأيتها من قبل ..

- أوه .... إنها نفس المباراة .. أنا على يقين من ذلك .. يبدو كأس البطولة موضوعاً على منضدة هناك في وسط الصورة .

قربت الصورة أكثر .. نعم كانت صورة من ذلك اللقاء .. بعض لاعبي الخصوم يظهرون في الصورة كذلك .. أعتقد أنه هو الذي يقف إلى جواري .. إنها التقطت قبل حدوث الكارثة من مسافة بعيدة ومن مصورنا الهاوي جداً .. يا لتعاسة الحظ .

تنفست الصعداء .. نظرتُ من جديد لهديته القابعة هناك في أعلى الرف ..

رن جرس الباب .. هل عاد من جديد؟..

سوف أريه هذه الصور فلابد أنه سيسعد كثيراً لدى رؤيتها .

هل تذكّر شيئاً عاد ليقوله ؟.. لنرى !

٩

قمتُ بحماس لأفتح له الباب ..

كان وجه آخر هذه المرة يبتسم لي .. طالباً الأذن بالدخول .... أفسحتُ له الطريق .. بين يديه علبة هدايا متوسطة الحجم .. شبيهة بعلبة زائري السابق .. قدمها لي بأدب جم دون أن يكلف نفسه عناء شرح سبب إهدائها لي .. لابد أنه ذلك المذيع وبرنامجه مرة أخرى!.

جلسنا في غرفة الاستقبال ..

دقائق وكانت القهوة في فنجانين وأبخرتها تتعالى مغرية .. احتفظ بحرجه وابتسامته التي دخل بهما .

كان شاباً يصعب تحديد عمره .. تبدو على ملامحه النباهة وعلى هندامه الثراء والنجاح .. يبدو لي أن وجهه مألوف .. حاولت استباقه بتذكر اسمه وصفته من خلال وجهه وشكله .

لابد أني كنتُ نقطة تحوله فما معنى هذه العلبة الحمراء إذاً ؟

لكن كعادتها لم تسعفني ذاكرتي في الوقت المناسب .. توقفتُ عن البحث .. لعلمي المسبق أنه لا جدوى من ذلك وأنه مضيعة للوقت .. لكنها تأبى إلا أن تعمل دون إشارة مني أو إرادتي .. هكذا هي الذاكرة دائماً .

افتتح حديثه معتذراً عن زيارته دون سابق موعد :

- لا شك أنك تتابع برنامج الإعلامي الشهير .

أومئتُ برأسي .. أضاف :

- حلقة هذا الأسبوع كانت جميلة .. لذا أنا هنا .

- أهلا بك .. من هو الأحمق الذي يفوت فرصة متابعة مثل هذا البرنامج .. أهنئك لوصولك لنقطة تحولك .. أنا لا أزال أتخبط لم أصل بعد .

كنتُ أحاول أن أقطع المسافة العمرية التي بيننا وأمهد له الطريق ليدخل في صلب الموضوع .. لم يكن بحاجة لذلك على العموم .

وضع فنجانه بعد رشفة :

- في الحقيقة أعجبتني فكرة البرنامج ..

- ربما لا غرابة أن يهتم أمثالنا من المتقاعدين بمثل هذه البرامج التي تفيدنا في التسلية وملأ وقت فراغنا الكبير .. لكن أن يحظى باهتمام أبناء جيلكم كذلك فهذا يعد حسنة للبرنامج ونجاح لمعده ومقدمه .

- الشيء الجميل يفرض نفسه بجماله .. أم الخبيث فيذهب جفاء .

- صدقت .. أفكاره تناسب جميع الأعمار والأجيال والأذواق .. يكفي أن تتابع حلقة واحدة لتدمن متابعته .. في شبابي كان هناك برنامج مماثل حاز على نفس هذا النجاح .. لا أذكر اسمه ..

- خواطر ؟ .

- نعم اسمه خواطر .. لكني لم أتفاعل معه كتفاعلي مع هذا البرنامج.

- نحن بحاجة ماسة لكل مفيد .. التفاعل جزء مهم من نجاح أي خطة أو برنامج .. وها أنا ذا أحاول أن أقدم لك هدية لك كما أشار مقدم البرنامج .. أحمد الله أنك تعيش في نفس المدينة .. أحد أصدقائي سافر اليوم إلى مدينة بعيدة لنفس الغرض .. أشعر أن ابناء جيلي متفاعلون بحماسة مع البرنامج .. هذا ما لمسته في أصدقائي كعينة صغيرة .

- في الحقيقة أنتم شباب متحمس .. أما التردد فهو ما تمنحه لنا السنون .. عكس أيام الصبا والشباب والحماس .. ربما لو كنتُ في عمرك لتوصلت لنقطة تحولي في وقت مبكر أيضا .

تناول الفنجان من جديد :

- ربما سبب تأخرك في الوصول هو ثراء حياتك العلمية والعملية ما يصعب عليك تحديد تلك النقطة المفصلية .. ستصل في النهاية أنا على ثقة .

- المهم أن أصل قبل حلول موعد الحلقة القادمة ههه هههههه ههه .

رشف من قهوته قبل أن يطرح عليّ سؤاله :

- هل تذكرتني أم أنك ستتحجج بالذاكرة أيضا ؟.

حان دوري لتناول فنجاني عله يمنحني بعض الوقت للتذكر :

- في الحقيقة حاولت جهدي التوصل لخيط ما مهما كان دقيقاً ليوصلني لشيء ما يربطني بك .. ولكنها دائماً ما تخذلني في مثل هذه المواقف .. وجهك مألوف لي لكني عجزت في تحديد هويتك .

وضع فنجان قهوته قبل أن يقول :

- كنتُ طالباً جامعياً قبل سنوات قليلة .. كنتَ أنت أحد هيئة التدريس في كليتي ..

- لكني تركت مهنة التدريس منذ سنوات .. كانت تجربة قصيرة لم ترق لي فتركتها مبكراً .

- أعلم .. حدث هذا في أول فصل دراسي لي في الكلية .. كنتُ متحمساً للدراسة .. كانت المادة التي تدرس فيها الأمتع عندي على الإطلاق .. كان طموحي أن أكون معلماً في الجامعة .. في الحقيقة كنتَ أنت السبب .. طريقتك في شرح النظريات المعقدة وتبسيطها جعلني أحب الدراسة .. تفوقت في تلك المادة أكثر من غيرها .. كنتُ على يقين ليس بالنجاح فقط بل وبالتفوق .

- جميل .

١٠

- يوم الامتحان حدث ما أخرني عن الوصول في الموعد .. ربما ليس من المهم ذكر السبب الآن .. لكنك لم تهتم لسماعه حينها .. ربما قد يهمك سماع ذلك الآن فذلك هو سبب وجودي هنا .

استرسل في حديثه دون انتظار تعليق مني :

- توقفت الميكرو باص التي كانت تقلني .. ليس لعطل فيها ولكن رغبة من السائق في خوض معركة بالأيدي مع سائق ميكرو باص مماثلة حاول اجتيازه .. تعلم مدى حساسية مثل هذه الأمور لسائقي النقل العام في ذلك الوقت .

نشبت معركة بينهما بالمنبهات .. ارتفعت الوتيرة قليلاً لتبادل السباب .. ليتطور كعادة الأشياء بالمضايقة بالسيارات .. بعدها توقفا .. ركنا السيارتين على جانب الطريق .. ليقدما فاصلاً من العراك بالأيدي والهراوات .. كان لابد من حسم ذلك الصراع قبل الشروع في إكمال

الرحلة .. فهذا أهم في نظرهما من أي شيء آخر حتى لو كان امتحاناً في الجامعة .

ركاب السيارتين أخذتهم الحماسة .. فريق يشجع سائقه ويبث فيه الحماسة اللازمة لإنهاء الصراع لصالحه .

ضحك ضحكة خفيفة ..

اكتفيتُ بالابتسام بينما واصل بعدها قائلاً :

- كان ذلك سبب تأخري عن الوصول في الوقت المناسب للامتحان.

لم يكن بالإمكان إيقاف المعركة بعد أن قطعت شوطاً هاماً في مسيرتها .. كان لابد من الحسم .. لن يسمح لأحد بإيقاف هذه المعركة مهما أوتي من قوة .

تمنيتُ أن يحسم أحدهم الأمر بسرعة حتى تستأنف الميكروباص رحلتها إلى الجامعة .. ربما كنتُ الوحيد الذي لم يغادر الميكروباص .. لم أكن من عشاق هذا النوع من الأفلام .. كما إني كنتُ مشغول الذهن بالامتحان الذي ينتظرني .. يقال في الأمثال أن المصائب لا تأتي فرادى .. وصول الشرطة زاد الطين بلة ..

ساقونا جميعاً للإدلاء بشهادتنا على الحادثة .. ومعرفة كل الملابسات المصاحبة لتلك الموقعة التي كانت سببًا في تعطيل حركة السير في طريق عام رئيسي .. بالكاد تركني الضابط أسرع للوصول للامتحان بعد فاصل من الاستجداء وتدخل السائقين وبعض الركاب للوساطة .

توقف ليتناول فنجان القهوة .. تناولته بدوري هرباً من عينيه المحدقتين بي .. عانيتُ بدوري كثيراً من سوء مزاج سائقي الأجرة .. حتى لو لم تكن راكبا سينالك شيء من الأذى .. كنتُ أتحاشى تلك الطائفة المستعجلة والمستحيل إرضائها .. كان متحمساً لسرد قصته .. كما إني أرغب في إنهاء هذه المرافعة المؤلمة ..

واصل دون أن يضع فنجانه قائلاً :

- وصلتُ بعد خمس دقائق من بدأ الامتحان .. بعد فاصل آخر من الركض في أروقة الجامعة لأصل إلى قاعة الامتحان .. كان ذلك خارجاً عن إرادتي كما أسلفت .. كنتُ أسبح في بحيرة من العرق .. وصلتُ لاهثاً متوتراً .. بالكاد التقطتُ أنفاسي ..

طرقتُ باب قاعة الامتحان .

وقفتُ أمامك لاهثاً والعرق ينز من كامل جسدي .. فرت الكلمات من لساني .. كانت حالتي تغني عن التعبير .. لكنك لم تبال بي .. أغلقت الباب في وجهي .. لم تهتم لسماع سبب تأخري عن امتحان هام ..

لم أتوقع أن يكون رد فعلك تجاهي بهذا الشكل .. فقد كنتُ أفضل طالبٍ في الدفعة هذا ما تقوله كشوف الدرجات .

طرقتُ الباب من جديد .. وقفتُ أمامك صاغراً ذليلاً مستجدياً .. قدمتُ عذري .. لكنك رفضتَ قبوله .. بل وطردتني .

هذه المرة شرب من الفنجان الذي بين يديه .. كانت هناك شبح دمعة في عينيه يحاول إخفائها .. لكنها كانت واضحة لي .. قال :

- بكيتُ أمام باب القاعة طويلاً ..

ذهبتُ إلى عميد الكلية طلباً للإنصاف .. كان موقفه أسوأ بكثير من موقفك تجاهي .. طردني من مكتبه شر طردة .

كررتُ في اليوم التالي المحاولة .. كان الإنصاف عنقاء مغرب .. كمن فقط أبحث عمن يسمع عذري حتى لو لم ينصفني.

في اليوم الثالث ذهبتُ إلى مركز الشرطة طالباً صورة من محضر الحادثة مثبتاً فيه حضوري .. فهو دليل دامغ عن سبب تأخري .. كنتُ كمن يحرث في البحر .. لم تذهب جهودي فقط أدراج الرياح .. بل مصيري ومستقبلي .. كنتُ أرى مستقبلي يضيع أمامي ولا أستطيع أن أفعل شيئًا لإنقاذه .. ضاقت بي الأرض بما رحبت ومادت .

بكيتُ في اليوم التالي أضعاف ما بكيته في اليوم الذي سبقه ..

لكن دموعي لم تشفع لي عندك ولا عند عميد الكلية .

١١

تنهد تنهيدة حارة من أعماقه ..

شعرتُ بحرارتها تلفح وجهي .. فررتُ من نظراته الدامعة بتناول كوب القهوة .. حاولتُ تذكر الحادثة التي يرويها .. سنواتي في الجامعة لم تكن طويلة .. ربما هذه الحادثة تكررت معي كثيراً في مشواري القصير فيها .. يقال إني كنت شديداً على الطلبة ..

هذه الشدة لم تكن طبيعتي .. لكن الظروف هي ما تجبرنا أحياناً أن نسلك سلوكاً لا نريده .. تركت التدريس في الجامعة مبكراً لهذا السبب .. كنتُ أرغب أن تكون علاقتي بالطلبة علاقة صداقة .. لكني لم أفلح في ذلك .. ربما في ذلك الوقت لم يكن ممكناً .. قد يعد ذلك ضعفاً مني .. هكذا يفكر طلبة ذلك الوقت أو هكذا كنا نشعر تجاه من علمونا .

كانت تلك ذريعة مفضلة لطلاب ذلك الزمن في التنصل من الامتحانات .. حججهم كانت واهية دائماً عكس ما كانوا يظنون .

ربما يكون صادقاً في ادعائه .. عذري الوحيد الذي قد أبرر به تصرفي ذلك هو أن تنازلي لمرة واحدة لن يكون الوحيد ولا الأخير .. سيتذرع الجميع بهذه المرة ويتحججون بها .. فالمساواة حتى في الجور هي إحدى درجات العدل .. ربما تكون أدناها لكنها عادلة في نظري على الأقل .. أحمد الله الآن أن سنواتي في التدريس لم تطل وإلا لامتلأ بيتي بالهدايا .

واصل تلميذي البائس سرد كارثتي معه :

- تركتُ بعدها ليس الكلية وحدها ولا الجامعة فحسب .. بل الدراسة كلها .. نصحني أهلي وأصدقائي بتغيير الكلية التي أدرس فيها .. لم يكن ذلك حلاً مرضياً لي .. عرضوا عليّ الدراسة في جامعات أخرى بعيدة عن هذه المدينة .. رفضت كل تلك العروض لسبب بسيط .. لقد كرهتُ كل ما يمتُ بصلة للعلم والدرس .. كرهتُ المعلم والمدرسة والكتاب ومقاعد الدراسة .

ذات يوم توقفتُ عن البكاء ..

اعتقدتُ أن ما حصل هو نهاية العالم .. لن أكون كما خططتُ وأردتُ لنفسي أن أكونه .. لم يكن ذلك بسببي على الأقل هذا ما عزيتُ به نفسي .. اشتركتَ أنت وسائق أرعن وعميد متعجرف في تغيير مسار حياتي .. الشعور بالظلم كان قاسياً لكن الشعور بالمهانة كان أشد قسوة .. اكتفيت بما سفحته من دموع .

راودتني فكرة الانتحار .. أكثر من مرة حاولت أن أضع حداً لحياتي لكني لم أملك الشجاعة الكافية للتخلص من هذا العالم كله .. لابد أن هناك عالمًا أفضل من هذا الذي نعيشه .. لكن للوصول إليه لابد من مغادرة هذا العالم أولاً .

جبني هو مفتاح شخصيتي على ما يبدو .. هكذا يقول بعض المقربين مني .

قال جملته الأخيرة وشبح ابتسامة كئيبة تلوح على شفتيه .. واصل قائلاً :

- كان من المستحيل البحث عن ذلك السائق الأرعن .. لكن لم يكن صعباً علي الوصول إليك .. أما ذلك العميد المتعجرف فقد غيبته المقابر عن هذه الحياة .. ربما هو يستمتع بعجرفته في عالم آخر الآن .

كنتَ أنت نقطة تحولي الرئيسية .. كنت سبباً لحبي وعشقي للدراسة كما كنت أنت نفسك سبباً في كرهي لكل ما يمت للكتاب بصلة .

كان يتكلم بحرقة هذه المرة .. كان يشعر بمرارة الهزيمة التي مني بها على يديّ ذات يوم .. لم أجرؤ على النظر في عينيه .. واصل قائلاً :

- جمعتُ كتبي ودفاتري الجامعية .. أحرقتها في محرقة كبيرة .. كنتُ أوهم نفسي بأني أحرقك أنت والعميد .. أحرق من كان سبباً في تدمير مستقبلي ..

سقطتُ بعدها فريسة المرض والإحباط ..

توقف قليلاً كان يتفادى دمعة تلح على النزول .. تنهد من جديد:

- كان لابد أن يأتي يوم وأضع فيه حداً ونهاية لهذه المأساة .. من حسن حظي أن ذلك لم يطل كثيراً .

قلت في نفسي : الحمد لله .. سينتهي كل هذا قريباً .. يبدو أني كنت مخطئاً وقاسياً .. بل كنتُ مجرماً كبيراً في نظره ذات يوم .. عاد ليكمل بوحه وحرقته :

- انتقمتُ لنفسي بطريقتي ..

توجهتُ للعمل في التجارة .. بدأتُ من درجة الصفر .. لكني تدرجتُ في الصعود بسرعة أذهلتني .. كنتُ كمن يخوض سباقاً .. كان منافسي في السباق مجهولاً في أول الأمر .

في الحقيقة كنتُ أبحث عن ملاذ مرضٍ لفشلي .. عن قبر مريح لأحلامي العلمية .. عن فريسة انتقم منها .. عن ملعب لأحلامي المستقبلية .

نجحتُ بعد أن اجتهدتُ .. كنتُ مصراً على النجاح فنجحتُ .. تكاثر المال في يدي .. تكدس .. صار لي مع مرور الأعوام اسم مرعب وصيت محترم في السوق .

يا الله .. يا للقسوة .. كيف تحمل كل هذه الحرقة ؟.. متى ينتهي كل هذا؟ ..

أضاف :

- لم تفلح أعمالي الكثيرة الناجحة في دفن تلك الذكرى الأليمة .. لم تغادر مخيلتي قط .. كانت تلوح لي خيبتي كلما مررتُ بمدرسة أو رأيتُ تلميذاً يحمل كتبه أو طالباً في طريقه إلى جامعته .. هذا عدا الكم الهائل من ميكروباصات النقل العام كانت تذكرني بنكبتي ونكستي ومصيبتي .

- كنت أبكي بلا دموع .. جرحي كان مفتوحاً بلانهاية وغائر بلا قرار .. كنت بحاجة لجراحٍ ماهر ليتمكن من معالجته وردم غوره .. لم يكن السوق والانشغال بالأعمال شافياً لدائي كان طعم الذل المرير يطاردني في كل وقت وحين .

لم يكن أمامي سوى حلٍ واحد للقضاء على تلك الذكرى .. لم أتوانَ في تنفيذه لأشفى من علتي وذلتي .

- الحمد لله وصلت لعلاج جرحك أخيراً .

لم يأبه لتعليقي .. كنتُ أحاول التخفيف من شعوري بالجرم .. يبدو أنه لا يشعر بوجودي في المكان .. كان كمن يتحدث لصورته المنعكسة أمامه في مرآة :

- أنشئتُ مدرسة ضخمة من مالي الكثير .. عسى ذلك أن يطفيء نيران حسرتي المتأججة .

جلبتُ لها أحسن المعلمين وأفخر الأثاث وأرقى المناهج .. أدرتها بمهارةٍ وتفانٍ وإتقان .. كان ذلك مشروعي الذي اخترته للانتقام .

سنوات قليلة صارت مدرستي مثالاً يُضرب وأملا يُطلب ليس من التلاميذ فحسب بل من المعلمين أيضاً .

شعرتُ بشيء من الراحة .

مع نجاح التجربة أنشئتُ مدرسة أخرى .. توالت النجاحات .. تضاعف بعد ذلك عدد مدارسي وانتشرت في كل مكان .. نسي الناس اسمي المرعب في السوق ليحل مكانه اسم جديد في سوق مختلف .. سوق العلم هذه المرة .

توقف عن بوح معاناته .. كان يمنحني فرصة للتعرف عليه .. كيف لم انتبه للاسم ؟ .. الآن فقط عرفته :

- بعد أيام سأفتتح جامعتي الخاصة .. الآن أشعر فقط أن جرحي يقترب من الالتآم والاندمال .. وأن وجعي في طريقه إلى السكون والخمود في قبر النجاح .

تناول كوبه .. كان بارداً .. تجرعه في دفعة واحدة .. أضاف :

- بتَ أرى الأشياء بمنظار مختلف .. صرتُ أراك الآن سبباً مهماً في نجاحي بعد أن كنتَ سبباً في فشلي .. إنها الأقدار التي وضعتك في طريقي .. كان لابد لي أن أفشل أولاً لأتمكن من النجاح لاحقاً .. هذا ما لا يمكن أن نتبينه في أوج العاصفة .. كان فشلي ثمناً للنجاح الذي حققته .. لم أكن سأغفر لك ذلك يوماً لكني أفعل ذلك اليوم بكل رحابة صدر ..

زفر من جديد قبل أن يضيف :

- كانت حلقة الأمس السبب في تغير نظرتي لمأساتي .

وقف من مجلسه .. مد لي كفه مودعاً قال :

- كنتَ أنت نقطة تحولي .. شكراً لك أستاذي .. ربما أصبحتُ أنا بدوري اليوم نقطة تحول لكثيرين انضموا لتلقي علومهم في مدارسي وغداً جامعتي .. سأكتبُ ذات يوم قصتي على باب جامعتي ليعرف كل من يدخلها سبب إنشائها .

صافحته قائلاً :

- شكراً لغفرانك .. ربما علي أن أفخر بك .. ستكون إساءتي لك سبباً في فخري ..

أليس هذا من العجب العجاب ؟ ..

١٢

غادر بيتي ..

اعتقدت أن خروجه ومغادرته سيزيح عن كاهلي حملاً ثقيلاً .. في الحقيقة كان الوضع على عكس ذلك تماماً .. لقد ترك في نفسي أثراً سيسكنني طويلاً .. ستصعب مغادرته .

هديتان مغلفتان بورق أحمر براق .. لهما نفس الحجم .. لماذا اختارا اللون الأحمر لتغليف هديتهما ؟ .. هل لاختيارهما هذا اللون القريب من لون الدم رمزية ما ؟

لا أعتقد أن هذا كان عفوياً .. أرى فيها معاناتهما ولو كانت على شكل هدية ..

كانت ولا تزال الهدية ترمز لشيء ما بين المتهاديين .. ربما لا يحفل الكثيرون بذلك مثلي .. لكن هناك كثيرون آخرون يحفلون .. حتى الورد برقته وألوانه المختلفة يرمز لشيء ما .. ليس بالضرورة أن يكون فرحاً .

ما باحت به هديتهما أكثر وضوحاً مما صرحا به بلسانيهما ..

يا للمفارقة !

ماذا في جوفيهما يا ترى ؟

نقطة تحول !..

متى ينتهي كل هذا ؟

لم يكن يشغلني ما بداخل الطردين .. ما كان يشغلني أنها تذكرني بجريرتين .. بمأساتين .. بفعل سلبي لا يزال متلقيه يتذكره بل ويصر على تذكير مرتكبه به .

إنها القصاص مغلف بورق أحمر .. أعتقد أنهما الآن قد استراحا من عبء أثقل كاهليهما طويلاً .. ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب.

ربما تلك اللكمة أخف وطأة على النفس من إذلال طالب .

يا لها من قسوة ..

فررتُ إلى التلفاز عليّ أجد فيه سلوى عما تركه في نفسي زائري .

فتحته .. كان يعرض حلقة معادة من نفس البرنامج .. استفزني مقدم البرنامج هذه المرة ليس بشاربه المشذب .. بل بما تركه برنامجه من أثر سلبي على نفسي .

كنتُ متحمساً للبرنامج .. لكني الآن أجد نفسي أفقد حماستي تلك ويحل مكانها شعور بالذنب .

أن الشعور بالذنب أسوأ بكثير من الذنب نفسه .

إنها عقوبة قاسية .. لم يتفطن لها واضعو الأحكام الجنائية ومقررو العقوبات على الجناة وإلا لخلت السجون من المذنبين .. ربما ستحتاج الدول لإنشاء هيئات أخرى بدلاً عنها لمعالجة المصابين بهذا المرض .

نعم إنه مرض .. لا شفاء منه ولا دواء يخففه إلا الغفران أو القصاص .

الغفران !

عملة نادرة هذه الأيام من الصعب تداولها .

اقفلتُ التلفاز بعصبية لم تكن فيّ من قبل .

تناولت ألبوما آخر من الرف .

إنه البوم يؤرخ لمرحلة أخرى من حياتي وحياة عائلتي ..

في كل مرة أجد ترتيبًا جديدا لهذه الصور ..

إنها ابنتي من يعيد ترتيب كل شيء في هذا البيت .

لا تستقر على فكرة .. بين فينة وأخرى تفاجأنا بتغيير يطال شيئًا أساسيًا في هذا البيت .ابنتي الوحيدة .. ما يروق لها اليوم وتجده رائعاً قد يصبح غدا مملاً .. هكذا تعودنا منها .. منذ نعومة أظفارها لاحظنا حسها الفني الإبداعي .. لم يكن منا إلا دعمها بالسكوت عن شطحاتها التي تسميها إبداعاً .. اعتبرت صمتنا ومجاراتها دعمًا لأفكارها تشيد به في كل مجلس .. إنها ليست عاشقة للإبداع بقدر ما هي مهوسة بالتغيير .. ترى في التغيير تجديدا للحياة .. الرتابة تخنق الحياة وتقتلها .. كنت مقتنعا بفكرتها .. لكن أمها كانت الداعم الأكبر لها .. ليست بالصمت مثلي ولكن بالإشادة بل وبالمشاركة .. كانت لها قدرة كبيرة على رؤية الأشياء بمنظار مختلف تماما عن منظاري .. نمت موهبتها .. لم تعد تقبل بنعتي لها بالمهوسة للتغيير بل تصر على إطلاق لقب الفنانة عليها .. ربما هذا ما زاد من حماستها التي كلفتني كثيراً من النقود .. لكنها منحتنا الكثير من الجمال .. لا أنكر هذا .

لا إرادياً نظرتً لصورة وجهها المعلقة على الجدار على يميني .. كانت تحرص أن تظهر ابتسامتها دائما في كل صورها .. تقول أن البسمة شيء جميل علينا أن نتعلم كيف نزرعها على شفاهنا لتنمو في قلوبنا .. بادلتها الابتسام .

في عينيها شيء أراه لأول مرة .. لم تكن لي قدرة على قراءة الوجوه من قبل .. لكني الآن أرى فيهما ما لم أره من قبل .. يشع من عينيها بريق .. لا استطيع وصفه بغير كلمة واحدة : الأمل .

كم أنت رائعة يا فتاتي ..

ربما أنا الأب الوحيد الذي يتحسر على زواج ابنته .

١٣

هذه الألبومات طالتها يد التغيير بحجة الإبداع والابتكار أكثر من مرة .. استقرت أخيراً على هذا الشكل ليس لنضوب أفكارها ..

فقط لأنها غادرت البيت بسبب زواجها .. لتنال تلك الصور راحة أبدية من عبث إبداعها وتستقر على هذا القرار الأخير .. لتطال موهبتها أشياء أخرى في بيتها ..

تقول كلما عاتبتها على هذا اللهو : يمكننا ترتيب ذكرياتنا كيفما نشاء .. لنراها كل مرة بصورة مختلفة .. هذا يطيل عمرها أكثر من تركها مهملة على نسق واحد .

ربما لم أقتنع حينها بفكرتها لكن الآن اختلف الوضع .

هذا البوم يؤرخ لفترة الدراسة لكل أفراد العائلة .

بعضها يخصني ومعظمها يخص أبنائي .. لم يكن التصوير شائعاً في شبابي لدرجة الهوس الذي أراه الآن .. في الماضي كنا نرى الكاميرا فنفرح لحضورها ..لم تكن تفعل ذلك إلا في المناسبات المهمة فقط وما أقلها .. أما الآن فهي لا تغيب أبدا فهي تسبق الحدث وأهل الحدث .

قلبت الصفحات .. تناثرت الذكريات من مخابئها لتطفو على السطح من جديد .. تحمل معها رائحة الماضي .. ميزة الصور الثابتة أنها تختطف لحظة فقط من مشهد كامل بمشاعره وأحاسيسه .. قد لا تكون حقيقية ولا تعكس الحالة .. عكس الصور المتحركة فهي صور حقيقية حتى لو كان المشهد الملتقط غير حقيقي .

هذه صورتي وأنا ألقي محاضرة على مسامع طلبتي المنصتين .. كيف وصلت إلى هذا الألبوم ؟.. لم أرها من قبل .. ربما هي ابنتي من سعت للحصول عليها .. لتكتمل فكرتها في تصميم هذا الجزء من ذكريات العائلة .. لا أستغرب ذلك .

يظهر بعض طلبتي في ركن الصورة .. هل أعني لهم شيئاً الآن ؟

أرجو أن لا أكون نقطة تحول لهم كذلك ..

شعرت بأني أنفقتُ وقتاً طويلاً في جلستي هذه ..

توقفتُ عن تصفح المزيد من الصور .. العودة للماضي ليست دائما مفيدة .

هذه المرة بعثت الصور في نفسي المزيد من الألم والحسرة على ما حدث مع ذلك الفتى المنكوب .

تركتُ المكان وغادرتُ البيت .

نقطة التحول هذه صارت مثيرة لأعصابي .

سرتُ وحيداً في شوارع المدينة .. تلك عادة قديمة أدمنتها .. ألجأ إليها كلما داهمني هم ما أو مشكلة مستعصية .. تتفتت مهما كانت شدتها .. تنفرج مهما كانت عقدتها .

لجأت لسلاحي القديم .. أنا بحاجة لصفاء الذهن .. لم أشعر بالوقت .. كما أني لم أشعر بعد بصفاء الذهن .. واصلتُ سيري وتهيامي .. عدت إلى البيت في وقت متأخر .. الغريب أني لم أشعر بالجوع ولا بالعطش ولا بالحاجات البشرية الأخرى .. كنتُ في عالم آخر .. عندما شعرتُ بشيء من التحسن كررتُ راجعاً .

لن أسير إلى ما لانهاية على العموم حتى لو لم تتفتت المشكلة ولم تحل العقدة اللعينة .

١٤

وصلت إلى البيت .

صليت صلاة العشاء .. فقدت القدرة على التركيز في صلواتي السابقة .. عدة مرات يسرح بي فكري في نقطة التحول .. أجد نفسي قد نسيت عدد الركعات التي صليتها .. هذه المرة كان تركيزي أفضل قليلاً من السابق ..

توجهتُ بعدها إلى الفراش رأساً .. لم تعد عندي أي طاقة ولا مقدرة حتى على تناول العشاء ..

على الهاتف العديد من المكالمات التي لم يرد عليها .. وثلاث رسائل .. لابد أنهم أبنائي .. لم تكن لدي رغبة في الحديث ولا حتى لكتابة رسالة قصيرة .. استلقيت على فراشي .. رحتُ في سبات ..

استيقظتُ أكثر صفاء .

تناولت إفطاراً سريعاً .. استلقيت على الأريكة في غرفة الجلوس .. شاشة التلفاز سوداء تغري بتشغيلها .. ينتابني إحساس أن ذلك

الإعلامي ينتظرني خلف سوادها .. سيطاردني ببرنامجه الذي صار كابوساً لي .. يصب عليّ سياطاً من عذاب .. هل هو القصاص لجرائم لم أحاسب عليها في حينها ؟.

تناولت كتاباً .. في محاولة مني لقتل الوقت والهروب من حالتي السيئة .. كنت كائناً قارئاً قبل أن أتحول إلى كائن تلفزيوني بامتياز .. فقدت الشغف للكتاب بعد أن ضعف بصري .. كنت استعين بالقراءة على قتل أوقات فراغي .. انقلب حالي لتصبح برامج التلفزيون رفيقة وحدتي ..

كثيراً ما نصحني الأصدقاء بالزواج .. فوجود رفيقة معي أفضل كثيراً من برامج التلفزيون .. لكني لم أستسغ مشاركة امرأة أخرى لحياتي بعد وفاة زوجتي .

طرق خفيف على الباب .

تباً ..

من هناك يا ترى؟ .

ما هذه الحماسة التي دبت فجأة في الناس .. هل لدى أحدهم ما يعاتبني من أجله ؟

قمتُ بلا حماس .. فتحتُ الباب ..

هذه المرة كان أحد الجيران .. تنفست الصعداء .. سأنعم ببعض الصفاء على ما يبدو ..

لكني ما أن رأيت طرداً أحمر اللون بين يديه حتى علمت بأني مخطيء في اعتقادي !.

يبدو أنه لا يوجد غيري في هذه المدينة !

انتظرتُ أن يطلب الإذن بالدخول .. لكنه لم يفعل .. لا أستغرب أن لديه ما يعاتبني من أجله .. الغريب أنه جاد ووجهه خالٍ من الابتسامة عكس سابقيه .. لا أذكر أن البرنامج طلب من متابعيه كل هذا الجد والعبوس .

نسيتُ أن أدعوه للدخول ..

قال :

- بالأمس وصل هذا الطرد .. مندوب شركة البريد السريع لم يجدك .. بالكاد أقنعته بالموافقة على تسليمه لي .

حسناً ..

حمدتُ الله .. لم يكن هو صاحب النقطة اللعينة إذاً ..

تسلمتُ الطرد الأحمر المفخخ بنقطة تحول لأحدهم ..

من يكون يا ترى ؟

طرق جديد على الباب .. فتحته بتكاسل وتأفف قبل حتى أن أضع الطرد إلى جوار رفيقيه .. هذه المرة كانت الابتسامة مرسومة على محيا جاري .. قال :

- أسف نسيتُ تسليمك هذا الرسالة .. كانت مع الطرد .

ابني الأكبر أكثرهم شبها بي في هذه المرحلة .. لا أعني في شكله بل في حبه للعلم .. كان يعشق الدراسة

١٥

وضعتُ الطرد المشبوه إلى جوار رفيقيه ..

بمجرد أن فتحتُ المظروف فاحت رائحة عطر أنثوي من محتوياته .

كانت الرسالة مكونة من عدة صفحات من ورق الرسائل .. وردية اللون .. زينت هوامشها بالورود .. إنها رسالة من أنثى دون شك .. الأمر ليس بحاجة لكثير ذكاء .. لنرى !

مرحباً ...

لا أعتقد أنك نسيتني .. ليس الأمر بهذه السهولة .. أنا أيضاً لم أنسك لكني استطعتُ فقط تناسيك .. دفنتُ تلك الذكريات في مكان بعيد من ذاكرتي .. وحده برنامج تلفزيوني استطاع نبشها دون إرادة مني .

لا أعلم ما إذا كنتَ من متتبعي هذه النوعية من البرامج .. لكني أرجو أن تكون كذلك ..

ربما تذكرتني الآن .. خطي لم يتغير بعد وكذلك قلبي .

لا أعتقد أنك شخت لهذه الدرجة إلا إذا تكرر الأمر مع أخريات غيري .

لكني أجزم أنك لست من تلك النوعية اللعوب .

نعم إنها أنا ..

لو كنت متتبعاً للبرنامج الشهير فلابد أنك عرفت سبب إرسالي لهذه الرسالة .

نعم إنها نقطة تحول "

انتهت الصفحة الأولى عند هذه الكلمة المؤلمة .. لم تعد نقطة تحول في نظري بل صارت لحظة تعذيب .

نظرت للطرد الثالث .. يحمل نفس مواصفات سابقيه .. لون أحمر قانٍ يغلف محتوياته .. بت أكره هذا اللون وهذا اللهو .

" ترددتُ كثيراً ..

ليس في الوصول لنقطة تحولي .. بل في إرسال الرسالة والهدية كما أشار بذلك صاحب الفكرة ومقدمها في البرنامج..

هل توصلت أنت لنقطة تحولك ؟

لم يستغرق الأمر معي سوى دقائق .. قبل أن ينتهي عرض الحلقة كنتُ قد وصلتُ للنقطة .. لست بحاجة للتفكير فيها .. فهي ماثلة عياناً أمام ناظري .. إنها وحدها ما كانت سبباً في تحول مسار حياتي .

تعلم – لو كنتَ تذكرني – إني لستُ من النوع المتردد .. لكني هذه المرة ترددتُ .. ترددتُ ليس في تحديد النقطة المطلوبة ولا في فكرة تقديم هدية .

ترددي كان في الطريقة التي سأخبرك بها عن كونك سبب في تحول كبير في حياتي .

كنتُ بين خيارين .. إما المواجهة أو المواربة .. كانت الغلبة للثانية لهذا تقرأ الآن هذا الخطاب .

لن أطيل عليك .. فربما وقتك – الثمين – لا يسمح بقراءة خطاب طويل مكون من عدة صفحات .

قد يهمك معرفة النقطة .. لو لم تخني ذاكرتي فأنت تشتعل فضولاً الآن ولن تتوقف عن قراءة خطابي حتى تصل إلى آخر سطر فيه .. وربما قد تعيد قراءته عدة مرات .

أقول لو لم تخني ذاكرتي ..

لا زلت أذكر تلك اللحظة التي كنتَ نهماً فيها للمعرفة وللنجاح .

هذا على فكرة ليس عيباً .. يعده البعض ميزة وعلامة تفوق .

لم تكن من النوع الذي يتردد في اتخاذ القرار المناسب مهما كانت تداعياته .

غيابك عن الموعد الذي ضربته لخطبتي كان كافياً لي لمعرفة أنك اتخذت قراراً آخر .. وأن خطوبتنا وارتباطنا معاً لن يكونا ذا فائدة لك على الأقل .

لن أخجل أن أقول أنك كنتَ على حق ..

فهو لن يكون ذا فائدة لكلينا .. أقول هذا الآن بعد مرور عقود .. ربما لن أستطيع أن أقول هذا الكلام لو التقينا مواجهة .. ربما سأضعف وقد أبكي فلا زلت تلك الإنسانة الضعيفة .

سأخبرك أمراً قد تستغرب له – هذا في حال لا تزال تذكرني – لم أبكِ في ذلك اليوم ..

هل تصدق ؟ ..

حتى الدموع خذلتني في ذلك اليوم الذي احتجتها فيه أن تذرف بسخاء كما يفترض في مثل هذه الحالة ..

بخلت علي بدمعة أسف واحدة ..

خذلتني هي الأخرى ..

تخلت عني كما تخليت أنت عني في آخر لحظة .. في اليوم الذي تنتظره كل فتاة .. يوم لن تنساه في عمرها يوم خطوبتها ..

الموجع ليس تخليك عني بل أنك لم تكلف نفسك عناء التبرير أو الاعتذار على سلوكك الهجين ولو بعد حين .

في ذلك اليوم – الذي لن أنساه – تجهزتُ كأحسن ما يمكن أن أتجهز به ليوم كهذا .. لكنك لم تصل والمصيبة أنك لم تتصل .

مرت ساعات الانتظار مريرة .. ظننتُ أن حادثاً قد تعرضت له أو أمراً جللاً هو ما أخرك أو منعك من القدوم .

اتضح لي بعد ذلك أنك اخترت طريقاً آخر لتسلكه ليس لي فيه مكان معك كما كنتَ تقول .. وكما كنتُ أحلم .

بعد مرور كل هذه السنوات أستطيع أن أشكرك كثيراً ربما كما لم يشكرك أحد على صنيع أو فعل من قبل .

لا أعلم ما حدث لي فجأة ..

تغيرتُ تماماً .. لم أعد تلك الفتاة الساذجة الرومانسية التي لا تملك إلا أن تحلم .. لا أعلم ما حل بها .. لكني أعلم أن غيرها حلت في بدني .. مختلفة تماماً عن تلك الضعيفة .

تخليك لم يكسرني بل زادني قوة .. أنا الآن أكتب إليك لا تشفياً ولا انتقاماً بل لأشكرك ..

ترددتُ كثيراً قبل أن أكتب هذه الرسالة – التي طالت – لكني أريد أن أقول من خلالها :

إني بعد مراجعة دقيقة لحياتي أقول لك أن تلك فعلاً كانت نقطة تحولي..

حتى المحيطون بي لاحظوا ذلك ..

لم أعد تلك بل صرت هذه .

ربما في الهشاشة قوة نجهلها نحن معاشر النساء .. هذا قد يغير الكثير من القوانين الفيزيائية التي تسيطر على عقول البشر ومن بينها عقول النساء أنفسهن .

هشاشتي كانت نقطة قوتي .. خذلانك جعلني اكتشف نفسي من جديد .. قد يقبل الآخرون مبرراتك التي أجبرتك على التخلي عني .. لكن لا يستطيع أحد إقناعي بها مهما أوتي من بلاغة وبراعة وقوة إقناع .. حتى لو كنت أنت نفسك من قدم تلك الأعذار في اليوم التالي فقط .. ثق أني لم أكن لأقبلها ولم أكن لأتقبلها ..

تلك اللحظة كانت نقطة الصفر لي ..

تغيرتُ بعدها ..

بتُ أكثر فهماً واستيعاباً وتقديراً .. صارت لدي قدرة على أن أقرر ..

قررتُ بمحض إرادتي ودون ضغوط من أحد ..

أفسدت علي حلاوة أهم يوم تنتظره أي فتاة ..

سفرك المفاجئ من أجل الدراسة !!

لا يعذرك عندي مهما كانت الظروف .. من السهل قطع الوعود ورسم الأحلام .. لكن الصعوبة تكمن في تحقيقها ومن هنا يتمايز البشر .

ربما أكون عقبة كئداء في طريقك لكن كان من الشجاعة والرجولة أن تعتذر ولو برسالة .

الهروب كان أسهل وأقل كلفة لك ..

لكنه كان باهظاً لي .. وثقيلاً عليّ .

ما حز في نفسي ليس تخليك عني في ذلك اليوم المشهود .. كان ذلك أمراً يمكن تجاوزه ..

بل نظرات الشفقة في عيون أهلي وأقاربي وفي عيون كل من علم بموعد خطوبتي ..

الشفقة أشد وقعاً علي النفس من الإهانة .. قد تتحمل الإهانة بضحكة خرقاء ...

أما الشفقة فيصعب تحمُّلها .

على الأقل في ذلك اليوم .. أما بعده فقد شكرتك من أعماقي على صنيعك .

ذلك اليوم قررتُ أن لا أنكسر ..

سأجعل تلك النظرات المشفقة تغير نظرتها لي ..

لن أندم ابداً .

واجهت الأمر بشجاعة لم أعهدها في نفسي .. أبلغتُ أهلي بأني صاحبة قرار إلغاء الخطوبة .. أعلم أنهم في قرارة أنفسهم يعلمون كذبي .. كل ما أردته بكذبتي الصغيرة أن لا يروك بعيون المهانة .. حافظت على بقاء صورتك جميلة في نظرهم .. ربما هذا ما لم تملك الشجاعة لتفعله أنت كرجل .. لكني فعلته .

اكتشفتُ من تجربتي معك أن المرأة الهشة أجمل بكثير من تلك الصلبة .. كما تعلمت من خذلانك أن المرأة الصلبة أنفع لنفسها وأهلها وللبشرية أكثر من تلك الهشة الجميلة .

ألا تشاطرني هذه النظرية ؟

ربما لا تهتم بمثل هذه النظريات الاجتماعية ..

خذلانك منحني فرصة التعرف على الآخرين بمنظار التجربة ..

التجربة سلاح منحتني إياه لمواجهة الحياة .

ربما كانت هديتك قاسية لكنها كانت أهم هدية أتلقاها .

لهذا أخط رسالتي هذه لأشكرك عليها .. كنت سبباً رئيسياً – إضافة إلى أسباب جانبية أخرى – في تغيير مسار حياتي وطريقة تفكيرى وأسلوب مواجهتي للحياة .. فوجب عليّ شكرك .. فهذا ديدن أمثالي .. حتى لو كان المشكور من كان على مثالك .

ربما قد تغيرت بفعل السنين والتجارب .. لا أعلم ولكني اتحدث عنك كما علمتك في ذلك الوقت البعيد جداً .. فعذراً لتطاولي .

ربما ترغب في معرفة ما حل بي .. وما صرتُ إليه بعدك .. لو كنتُ أعرفك حق المعرفة فتخميني سيكون صحيحاً .. فالفضول كان إحدى خصالك .

لذلك سأخبرك . أنا الآن أم ناجحة ...

ليس لأبنائي فقط بل لأجيال كثيرة من الأمهات .

عانين بدورهن كثيراً من الخذلان والبؤس والشقاء والذل .

كان علي أن أنقل تجربتي المهمة لكل امرأة هشة لتزداد جمالاً في نظر الآخرين وأعظم فائدة لوسطها وأهلها وبلدها .

صرن الآن أكثر صلابة وقدرة على مواجهة واقعهن ..

توقفن عن ذرف الدموع واستدرار العطف .. صار الجميع ينظر لهن بعين الإكبار والإجلال والتقدير ..

نجحن فقط بعد أن توقفن عن سكب الدموع على اطلال مصيبتهن .. صارت دموعهن ماء يسقي احلامهن وأملهن .. فأينع وأورق وأثمر .. صرن أقوى وأقدر على مواجهة الواقع .

العالم لا ينتهي عند أول مصيبة .. بل ربما يبدأ من هناك .. هذا شعار مؤسستي .

شكراً من جديد لخذلانك .

منه تعلمت وبسببه صرت أكثر فائدة ونجاحاً .

اتمنى لك حياة سعيدة ..

وأرجو تقبل هديتي بكل روح رياضية كنت تمتلكها ذات يوم .

وأرجو أن تكون لا تزال تحتفظ بها .

توقيع : المخذولة

١٦

رميت الأوراق من يدي على المنضدة .. كنت كمن يتخلص من حية تحاول أن تلذغه .. عطرها النفاذ يوحي لي بأنها قد نجحت في لذغي .. مراجعة الماضي ليس بالأمر المحبب .. إنه جريمة أشبه بنبش القبور .. بل أشنع .

تلك الفتاة كانت رائعة وجميلة وهشة .. لكني كنتُ أشعر بأني لا أناسبها .. كنت أجبن من أن أصارحها .. ربما بعض الصارحة مؤلمة .. لكنها ترياق .. بينما الغدر والخيانة سم زعاف لا شك في ذلك ..

كانت حالمة في زمن لا يعترف بالأحلام .. كان علي لتحقيق أحلامها أن أتوقف عن الحلم أولاً .. ولن يتسنى لي ذلك دون التخلي عنها .. أعلم أن هذا ليس مبرراً .. لكن هذا ما حدث .. لم أكن شجاعاً بما يكفي لمصارحتها بأفكاري .. انتظرت حتى ضاق الوقت واقترب موعد رحيلي .. اكتفيت بإرسال صديق لإخبارها بسفري قبل يوم من موعد الخطوبة .. لكنه لم يملك الجرأة الكافية لفعل ذلك في نفس اليوم .. فزاد الأمر سوء على سوء .

توقعت أن السنين مقبرة للآلام .. لكنها ليست كذلك .. إنها فقط مسكّن لها .. وسوف تنفجر الآلام من جديد في أول موقف .. كنتُ طوال تلك السنين أتقلب على جمر الندم دون أن يخفف ذلك شيئاً من إحساسي بالذنب .. عيب هذه النار الوحيد أنها ليست قاتلة لكنها مؤلمة ..

يقال أن للنار قدرة على التطهير .. لكن نيران الندم ليست كذلك .. إنها خلقت للتعذيب لا للتطهير .

حاولت البكاء .

يقال كذلك أنه دواء أنجع من النسيان .. هو نوع من التكفير عن الذنوب .. يشعرك بشيء من الراحة .

حتى هذا الدواء كان مستعصياً عليّ .

استلقيتُ على السرير .

للنوم وقعه على الذهن .. ربما له قدرة أفضل من أي دواء على التخفيف من معاناتي .. لكنه يأبى الانصياع لي .

تباً لهذه الوحدة المقيتة .

عادت إلى ذهني أحداث كثيرة كانت شريكتي فيها .

الوحدة مجلبة للذكريات وللآلام .. لم أتفطن لهذا قبل اليوم .

مؤلم هو الخذلان ..

لا بأس من الاعتراف أحياناً ولو بعد فوات وقت الاعتراف .

ما يميز الإنسان عن غيره من الكائنات هو تعرضه المستمر للحظات الضعف .. هناك من يقوى على المواجهة والمصادمة .. هؤلاء كنتُ دائماً ما أنظر لهم بعين الإجلال والحسد .. بينما كثيرون يسقطون ويهوون .. هذه الفئة كنتُ أراها بعين الإشفاق وأحياناً بشماتة .

لهذا يتمايز الناس .. الأنانية ..

خصلة بشرية أخرى .. هذه الخصلة تشاركها فيه معظم الكائنات .. لكن البشر يختلفون حتى في أنانيتهم .. إنها فظيعة ومخيفة .. ربما قاتلة.

المصلحة ..

قرينة الأنانية تدور في فلكها .. ما بني على المصلحة يتهاوى كما تتهاوى القلاع التي يبنيها الاطفال برمال الشاطئ .. موجة صغيرة كفيلة بإعادتها لأصلها رملاً ناعماً .

المؤلم أكثر هو اكتشاف ذلك بعد فوات الأوان .

هذا ما يسميه الكهول الحكمة .. إنها في الحقيقة تجارب فاشلة تصاغ على هيئة نصائح هذا كل ما يمكن تعريف الحكمة به .

لم أعد أطيق نفسي .. أشعر بضآلتها ..

كنتُ نقطة سلبية ذات يوم في حياة أحدهم .. لكنهم استطاعوا الانتصار على أنفسهم وقلبوها لصالحهم .. ربما هناك آخرون .. بالتأكيد هناك آخرون !

هل كان مصيرهم مماثلاً ؟ ..

هل نجحوا في قلب واقعهم ؟ .. أم العكس تماماً هو ما حدث ؟

بتُ أخشى ملاقاة الناس .. أخشى أن أكون نقطة سلبية في مسيرة أحدهم ..

ذاك الإعلامي بشاربه المشذب يطاردني ببرنامجه .. كأن البلد خلت من نقاط تحول .

متى أصل لنقطتي وأرتاح ولو قليلاً ؟..

تناولت ألبوماً آخر يحمل ذكريات أخرى .

١٧

هذا ألبوم يؤرخ لأفراح عائلتي ..

قلبتُ صفحاته ..

تظهر زوجتي – رحمها الله – فيه قليلاً .. كان لها عداء سافر مع الكاميرا .. تصفها بالذاكرة المزيفة .

الغريب أنها تظهر في جميع الصور – على قلتها – وهي تحاول أن تكبت دموعها !

لم ألاحظ هذا من قبل .. كانت هذه أجمل لحظات العمر .. لم تستطع أن تعبر عنها إلا بدمع مكبوت ..

سألتها ذات فرح عن سر هذه الدموع فأجابت :

- من خشيتي على الفرح أبكيه ليبقى طويلاً .

كانت تقول السرور فقط يمكن التعبير عنه بابتسامة .. لكن الفرح لا يليق في حضرته إلا الدموع .. إنه توأم الحزن فكلاهما من رحم المعاناة يولدا .

فلسفة غريبة .. لكنها صادقة ..

قرأت للكاتب الشهير ابراهيم الكوني قولاً أعجبني كثيراً .. يقول : "إن الذئب إذا شبع بكى بكاءً مراً واستولى عليه الشقاء لأنه يعلم أن العاقبة هي الجوع .. أما إذا جاع فيضحك فيملأ الوديان والسهول بالقهقهة لأنه يعلم أن الجوع سيليه شبع يوم ما" ..

هكذا تفهم الذئاب الحياة .. وهكذا تعبر عن مشاعرها بالعواء .. توقفت كثيراً وأنا أتفكر فيه .. كيف استخرج هذا المعنى الدقيق والجميل من فم ذئب؟

إنها نفس ما فلسفة زوجتي مع الدموع .. تستخدم نفس وسيلة التعبير لحالتين مختلفتين تماماً .. وتنجح في كل مرة لفهم حالتها النفسية.

الفارق الوحيد هو أنها حين تكون حزينة تطلق العنان لدموعها لتسيل على هواها .. بينما تحاول كتمها وإقامة سدود الكبت في طريق سيلانها وانهمارها في حالة الفرح ..

لكنها دائما ما تفشل في ذلك .

دائماً ما كانت تقول حين أعاتبها على سخاء دموعها :

- لماذا نكبت مشاعر الفرح فينا حتى لو كانت دموعاً ؟ ..

الكل يسعى لإطالة لحظاته السعيدة إلى دقائق وساعات وأيام .. يسعى بعضهم لصنع السعادة بتحشيد الأموال .. لكنه سرعان ما يكتشف زيف تلك السعادة .. ما هي إلا لحظات سرور ومتعة لكنها ليست سعادة .. فالسعادة أغلى من أن تمتلك بأموال الدنيا .

يا لهم من تعساء .

المشكلة أن ذاكرتنا لا تسجل إلا لحظات فقط من السعادة حتى لو امتدت هذه اللحظات لتطول لساعات وأيام .. بينما لها قدرة فائقة وغريبة على اجترار الحزن والتعاسة أطول فترة ممكنة .

تباً لك أيتها الذاكرة .

دخولها في حياتي كان محض صدفة .. لم أخطط لذلك .. لم يكن لدي وقت للتخطيط لخطوة كبيرة مثل هذه .. كنت منشغلاً عنها بأشياء أخرى كنت أراها أكثر جدوى .. ربما إنهائي لعلاقتي السابقة

بتلك الطريقة المجحفة سبب مباشرة في عزوفي عن التخطيط للزواج .. إنه نوع من الهروب للتكفير عن إثم الخذلان .

كنت أعتقد أن ذلك نوعاً من العقاب قد يكفر ذنبي العظيم تجاه تلك الفتاة الحالمة .. عزوفي طويلاً عن الزواج قد يكون رسالة قد تصلها بطريقة ما أني لم أتخل عنها من أجل أخرى .. وهذا قد يخفف قليلاً من المأساة .

مرت سنوات وسنوات ..

استطعت فيها تفادي الحاح الأهل والأصدقاء بحجج مختلفة .. لكن هذه المرة لم أجد حجة .. مللت الهروب .. فكان لابد من التغيير .. عزوفي ذلك لم يكن كافياً لأشعر بالراحة .. لذلك قررت أن أتخلى عن هذه الفكرة لعلي أرتاح .

كما أن لقائي الأول بزوجتي كان له وقع السحر على نفسي .

كنت أبحث عن النسيان والراحة فوجدت معها حاجتي .. بل أكثر من بغيتي ومطلبي .

رحمها الله .. غادرت عالمي بأسرع مما توقعت .. تركت لي حملاً تنوء عنه الجبال .

ضاق بي البيت من جديد ..

في السابق كان السير في الطرقات يعينني كلما ضاقت نفسي .. سأحاول ذلك من جديد .. في المرة السابقة سرتُ كثيراً .. النوم تعباً هو ما منحني شيئاً من الصفاء .. ها أنا أفقده من جديد ..

لست متأكداً من زوال هذا الكدر بسهولة هذه المرة .. قد يتطلب الأمر السير أميالاً كثيرة .. أخشى أن لا يكفي محيط الكرة الأرضية لتنفيس ما بي من هم وكدر.

بعضهم يختصر المسافات فيلجأ إلى المسكنات والمهدئات .. الأكثر هماً يصبحون من مدمني المخدرات بسبب الرغبة في الهروب من همومهم .. هذا ما تزينه له عقولهم ..

الانتحار كان وسيلة آخرين للهرب .

لن أحتاج للعقاقير ولا للمخدرات ولن أنتحر .. لأني ببساطة لا أملك الشجاعة الكافية لأ تجرع هذا الدواء .. وهذا من حسن حظي.

سأحاول الاكتفاء بالسير حتى لو اقتضى الأمر أن أسير حتى الصباح .

عند أول الناصية أوقفني ..

١٨

تذكرته بسهولة .. هش في وجهي وبش كعادته مذ كان بواباً لعمارتنا التي انتقلت منها منذ سنوات للعيش هنا في هذا الحي .

لا يزال يحتفظ بروحه المرحة وخفة دمه .. شيء واحد تغير فيه .. أضاف الزمن بعض الخطوط والتجاعيد لصفحة وجهه .. وفقد مزيداً من أسنانه .. كما أن السنين أحنت قليلاً من استقامته .. أما ما تبق منه فهو على حاله .. نقاء السريرة وصفاء القلب كنزه الذي يحسد عليه ولا يمكن انتزاعه منه .. قال لي ذات مرة أن كنزه لا يحتاج لخريطة للوصول إليه .

كان تعبيراً صادقاً بل صادماً من بواب مثله ضحل الثقافة .. لكنه معتز بكنزه أيما اعتزاز .

تعريف الثقافة بحاجة لمزيد من التمحيص على ما يبدو .

جلسنا بعد أن نال منا الوقوف .. كما أني بحاجة لتبادل الحديث معه للخروج مما أعانيه من ضيق بسبب تلك الهدايا الثلاث .. الوحدة التي أعيشها ربما لها دور فيما أعانيه .

- ماذا لو استجبت لإلحاح أبنائي بالزواج مرة ثانية ؟

فات أوان مناقشة مثل هذه الفكرة .. اعتدتُ الوحدة واعتادتني..

تناولنا عصيراً بارداً من المحل المجاور .

تذكرتُ ابنه .. سألته عنه .. قال بابتسامة فخر :

- هذا ما دعاني لزيارتك .

- اعتقدتُ أننا التقينا صدفة .

- كنتُ في طريقي إلى بيتك .

لم يكن الأمر مصادفة إذاً .. لقائي معه أزاح عن نفسي بعض ما تحمله من هموم .. تخليتُ عن فكرة السير .. كفاني مؤونة ذلك .. بساطة هؤلاء الناس يحسدون عليها .

- أهلاً بك .. لنعد نحو البيت ونكمل حديثنا هناك .

- لا داعي لتعبك .. سررتُ بلقائك .. فقط أردتُ تبليغك رسالة من ابني .

- كيف هو ؟ ذلك الصغير .. كان هادئاً ذكياً .. لابد أنه كبر كثيراً الآن .

ابتسم قبل أن يجيب :

- صار كبيراً .. أكثر مما توقعت له .

- جميل ..

- الفضل الأول يعود لك أنت .

- أنا ؟

- نعم .. أنت من جعله كبيراً .. بل ومصدر سعادتي وفخري .

- أنا !

- لهذا أنا هنا .. إنه هناك خلف البحار .. يعمل في شركة كبيرة ..

- شركة كبيرة ! .. ماذا يعمل هناك ؟

- قال إنه الرجل الثاني فيها بعد صاحبها .

- جميل .. يبدو أنه مثابر وطموح .

- أنت من بذر تلك البذرة التي نمت وصارت شيئا يذكر .

- أنا ؟

شرب ما تبقى من عصيره .. تحمس أكثر للحديث عن ابنه :

- أنت من حفّزه .. حدث ذلك عندما كان مراهقاً .. كان يساعدني في كشكي الصغير قرب حيّكم القديم .. هل تذكره ؟

- أذكر ذلك الكشك .. كان يقوم بالعمل نيابة عنك أحياناً .. كنتُ أشتري سجائري من هناك .

- في إحدى المرات – كما قال – تحدثت إليه مطولاً عن دراسته .. لم يكن مهتماً بها بالقدر الكافي .. كنتُ أفكر جدياً في إيقافه عن الدراسة بعد أن نجحت في إدارة الكشك .

- كنتَ بفعلتك تلك ترتكب جريمة شنعاء في حقه .

- هذا ما حدث .. لكنه أصر على الرفض بشكل أثار استغرابي .. لسبب بسيط .. فقد كان هو من عرض علي فكرة ترك المدرسة وأنا استحسنتها .. بل كان ذلك اليوم أول يوم يتوقف فيه عن الدراسة ويتفرغ للعمل في الكشك .

واصل بعد أن أشعل سيجارة .. سحب عدة أنفاس متتابعة بعمق .. نفث دخانها متلذذاً قال :

- قرر العودة للدراسة .. أصّر على موقفه .. بل تغيرت حاله مع الدراسة .. صار أكثر شغفاً واهتماماً عن سابق عهده .. في آخر العام كان الأول على فصله .. كان ذلك بمثابة معجزة لي ..

واصل اهتمامه بالدراسة في باقي السنوات وبنفس الهمة .. تخرج بعدها من جامعته بامتياز .. لم يكتفِ بذلك .. سافر بعدها لمواصلة تعليمه خارج البلد .. هو الآن يشغل وظيفة كبيرة في كبرى شركات التقنية هناك .. لم يعد بحاجة للعمل في كشكي الصغير .

توقف ليسحب أنفاساً أخرى من سيجارته قبل أن يطفئها :

- كنتَ أنت سبب تغيره المفاجيء .

زال نهائياً كل ما في نفسي من أثر خلفته تلك الهدايا الثلاث المغلفة بالأحمر ..

تحمستُ .. أخيراً هناك ضوء في آخر النفق كما يحلو للبعض أن يقول .. قلت له :

- كيف حدث ذلك ؟

- بالكاد أفصح عن سره .. هؤلاء الصبية يعتقدون أن بمقدورهم خداعنا .. علمتُ بطريقتي أنك مررت بالكشك ذات يوم – كعادتك– لشراء السجائر .. كان ذلك في الوقت الذي حل فيه بديلاً عني .. كانت دقائق قليلة التي فارقته فيها .. انقلب فيها كل شيء .. عندما واجهته بتلك المعلومة الصغيرة كشف لي عن باقي ما جرى بينكما من حديث .

- أذكر أني كنت أجده أحياناً في الكشك في غير ذلك الوقت .. نتبادل أحاديث قصيرة .

- تلك الأحاديث القصيرة كانت سبباً ما هو عليه الآن .. هو من قال ذلك .

- أوه .. جميل .. يبدو أن لي حسنات كذلك ؟

- لم أفهم ؟

- لا عليك .. تذكرتُ الآن .. ذلك اليوم التقيته في غير الموعد المعتاد لتواجده .. سألته عن سبب تغيبه عن المدرسة .

- نعم .. هذا بالضبط ما حدث .

- أنا أيضاً لا أذكر ما حدث بالتفصيل .. لكني لم أعد أراه في الكشك إلا لماماً .. بعدها استبدلت محل سكني ولم أعد أزور ذلك الحي إلا في فترات متباعدة .

- أنا أيضًا غادرته من سنوات .. حديثك مع ابني حفزه لطلب العلم – كما قال – يبدو أن لديك براعة في الإقناع جعلته يصر ويجتهد ويتفوق .

- ابنك لم يكن ينقصه إلا الحافز ليكون كبيراً .. أمثاله كثر .

- لكنهم ليسوا بحظ ابني ليلتقوا بأمثالك .. كان محظوظاً .

- بل أنا المحظوظ ..

- لا يزال ابني يذكر ما قلته له بالحرف .. دائماً ما يكرره على أسماع أحفادي ..

قلت له في شوق :

- جميل .. هلا ذكرت لي ما قلته له .

- أشعل سيجارة جديدة .. سحب نفساً .. أطلق سحابته فوق رأسه قال بعدها :

- لقد طرحت عليه سؤالاً استفزه .. قلتَ له هل ترغب أن تكون مثل أبيك أم أفضل منه ؟

لم أتمكن من مقاطعته .. صوب نحوي نظراته .. لم أستطع فهم كنه ما تحمله .. رأيت فيها عتاباً وملاماً ممزوجان بالعرفان .

واصل قائلاً :

- قال إنه لا يرغب في ذلك ويمقته أشد المقت .

سحب عدة أنفاس من سيجارته .. نفث مع دخانه ما يعتمل في صدره .. قال :

- قلتَ له إنك بتركك للمدرسة لن تكون مثل أبيك بل أسوأ منه .. إنك بتعلمك ستريح أباك وتساعده أكثر من تركك للدراسة .. أعلم أن هذا ليس كل ما قلته له .. لكنه كل ما علق بذاكرتي المنهكة .. قال لي أن كلماتك هذه كانت قاسية عليه كثيراً ..

- لم أكن اقصد...

قاطعني دون أن يهتم لما كنتُ سأقوله :

- بل أبكتني كثيراً .. لم أعارضه على قراره .. لأني أرغب أن يكون ابني أفضل من بائع في كشك صغير على ناصية حي سكني .. بل دعمتُ قراره بالتشجيع على المثابرة .

- ها هو زرعك يأتي أكله .

- هذا ما زرعته أنت وأحصد ثماره أنا .. شكراً لك .. لا أستطيع أن أفيك حقك ..

- هي مجرد كلمات ..

- لكنها لاقت أرضاً خصبة فأثمرت .

- لاقت قلباً وعاها .. وعقلاً فهم فحواها .. وعين نظرت بعيداً .. على الرغم من كونها عين طفل .. لكنها كانت ثاقبة .. لست وحدك من استفاد من بقائه في المدرسة .. ربما قطاع كبير من هذا العالم .

لم يكن الأب من متابعي ذلك الإعلامي وبرنامجه المثير .. لكن ابنه كان شغوفاً كما نقل لي والده .. الطريف أن ابنه طلب من أبيه حمل هدية لي .. وعدني بأن يرسلها لي في الغد .

ودعته ..

ستنظم لتلك الهدايا الثلاثة .. لكنها ليست مثلهن .. سيكون لها رف أعلى فهي تستحق ذلك .

عدتُ أدراجي إلى البيت .. حديث العجوز كفاني عناء الطواف حول الكرة الأرضية لإزالة ما بي من كدر .

يملك البسطاء أسباباً كثيرة للبهجة لا تقدر بثمن أقلها البساطة .. ربما لا يعون ما يملكون من كنوز .. هنا تكمن أكبر مشاكلهم .

هل ستكون هديته مغلفة بورق أحمر كسابقاتها ؟

١٩

مرت الأيام وتوالت .. ها هو ينتهي ويصل لمحطته الأخيرة .. يكمل دورته الرتيبة ليعود لنفس اليوم المشهود .. صرت أشبه بالسجين الذي ينتظر يوم الإفراج عنه ليتنسم عبق الحرية من جديد .. كان رهيباً كسجن مؤبد .

كان أسوأ أسبوع أشهده في حياتي .. أسبوع من العذاب .. عذاب النفس أشد إيلاماً من عذاب الجسد .. لا يحتاج الأمر لجلاد ضخم الجثة قاسي القلب لينزل بك سوط عذابه .. بل مجرد تحريك ما ركد في طيات الذاكرة من مساوئ كافٍ لمعاقبتك أشد العقاب .

في الماضي كنت أعتبر أيام الامتحانات أسوء ما يمكن أن يمر على إنسان طبيعي .. كانت أيام صعبة لكنها تنتهي بانتهاء الامتحانات .. بل تدخل بين طيات الذكريات الجميلة رغم كونها سيئة في وقتها .. لكن بعد انقضائها تصبح حلوة ولذيذة وممتعة .. خاصة إذا توجت

بنجاح باهر .. النجاح خمر معتقة تنسينا كل ما عانيناه لأجل الوصول إليه .. هي وحدها الخمر الحلال .

أما الآن فهذا المفهوم قد صار من الماضي وحل محله شيء آخر ..

كان أسبوعاً حافلاً بالماضي والمرارة .. على الرغم من أن نهايته كان فيها ما يسر .. لكن طعم المرارة أفسد عليّ الاستمتاع بتلك النقطة اليتيمة .. لن أفتح هذه الهدايا حتى تصل هدية ذلك الفتى .. ستكون الأهم عندي .

حلقة جديدة من البرنامج ستذاع الليلة ..

أتخيل ذلك المذيع يهتم الآن بتشذيب شاربه ليبدو أنيقاً استعداداً لبرنامجه .

الجلاد سيعود من جديد ليمنحنا فاصلاً جديداً من سوء العذاب .. إنه الجلاد الأكثر براءة وأناقة .

هل يعلم حجم المرارة التي سببتها لي حلقته ؟

لن أكون الوحيد بالتأكيد الذي يتجرع ماضيه المرير .

لست وحدي السيئ في كل هذه البلاد .. لكن بالتأكيد هناك كثيرون يدينون له بالامتنان .. أتخيل الآن عدد كبير من المتقاعدين الكهول الذين ينتظرون من يطرق أبوابهم ليشكروهم على صنيع فعلوه لهم ذات يوم ..

المشكلة إني لم أصل بعد لنقطة أراها مفصلية في حياتي ..

هل أنا وحدي من يعاني من هذه المشكلة ؟

لم أتمكن من أن أحصر تفكيري في نقطة ما .. هل لعمري سبب في ذلك ؟

لن أضع اللوم عليها وحدها .. تلك الهدايا شتت تفكيري .. كل ما استطعت التفكير فيه هو محاسبة نفسي على ما اقترفته في حق آخرين قد أكون سبباً في نقطة تحول سلبية في حياتهم .

هل سيقدم الإعلامي حلقة عن ذلك ؟

ستكون كارثة كبيرة .. من السهل أن تكون عقبة في طريق أحدهم لكن الصعوبة تكمن في أن تكون أنت من يزيل عقبة ما في طريق أحدهم .

لو فعل فلن تتوقف الأبواب عن القرع في كل البيوت .. فوراء كل باب أحد المتسببين في نكسة شخص ما .

أرجو أن لا يتحمس ذلك الإعلامي ليقدم مثل تلك الحلقة .. من السهل الوصول لنقطة مثل تلك فما أكثرها في حياة كل فرد منا .. فكل فاشل يعلق سبب فشله على الآخرين .. فهؤلاء الآخرون يتربصون به وحده فقط ليفشلوه .. لو أجريت استطلاعاً للفاشلين فسيكون هذا السبب الوحيد لفشلهم .. لكن المشكلة تكمن أن أحداً لا يعتبر نفسه فاشلاً !

الطامة الكبرى هي أن يطلب هذا الإعلامي بعد تقديم حلقته عن نقطة انطلاق سلبية من متابعيه أن ينتقموا ممن كانوا سبباً مؤثراً في حياتهم .. حينها ستحل الكوارث في ديارنا .. أما إذا طلب منهم تقديم هدية صغيرة فسيحتاج كل واحد منا لمخزن ضخم ليسع كل تلك الهدايا !

لست متحمساً لمتابعة حلقة الليلة .. شيء ما يجعلني أنفر منها ..

هل هي تلك الهدايا الثلاث ؟

هل هو عجزي – لحد اللحظة – عن تحديد نقطتي ؟

لا أعلم .. المهم أجد في نفسي نفوراً منها .. سأشغل نفسي بترتيب البيت وتنظيفه فقد أهملتُ ذلك طيلة الأسبوع المنصرم .

اقترب موعد الحلقة .. تنازعني إرادتان .. إحداهما تصرّ على متابعة البرنامج والأخرى ترفض ذلك وتنفر منه .. التردد أحد عيوبي التي أعترف به بكل روح رياضية .. ولم أتمكن من التخلص منه طيلة حياتي .. لذلك لن يكون الأمر استثناء اليوم .

ساعتان وتنطلق الحلقة .. علي أن أشغل نفسي بشيء ما حتى لا أفكر فيها .. لكن ....

جرس الباب يدق في إصرار ..

هل هي نقطة جديدة ؟

٢٠

في تكاسل سرتُ نحو باب البيت ..

كثُر زواري هذه الأيام .. كل ذلك بسبب برنامج تلفزيوني ! ..

أفسد عليّ هذا البرنامج وحدتي وخلوتي .. أثقل كاهلي بهموم كنتُ أجهلها .. بسببه صار عقلي يجّتر المزيد منها ويبحث عن غيرها بدل البحث في نقطة تحول تخصني .. هذا العقل كائن لا يمكن التحكم فيه مهما أوتينا من علم ومقدرة .

فتحتُ الباب .. صاحوا بفرح :

- بابا العزيز .

ألجمتني المفاجأة .. بل أخرستني .. وقفتُ فاغراً فاي .. لكن الأمر لم يطل إلا ثوانٍ .. تبادلتُ الأحضان بفرح وسعادة مع أبنائي الأربعة .. دخلوا لينتشروا فوق الأرائك .. شاع جو من البهجة في بيتي بعد أن كانت الكآبة تسوده قبل دقائق .. فرحتُ لمقدمهم لسبب أجهله .. على الرغم من أننا نلتقي على فترات متقاربة .. لكن زيارتهم هذه المرة أشعرتني بأننا لم نلتقِ منذ فترة طويلة جداً .

إنه نفس شعور السجين بالمؤبد وهو يخرج للحرية لأول مرة بعد طول عناء .

حمدتُ الله في سري أني قمتُ بتنظيف البيت قبل هجمتهم الجميلة المباغتة .. لم أتفطن لما تحمله أيديهم .. لا أعلم ما إذا كانوا أحسنوا إخفائها أم أن المفاجأة هي ما جعلتني أغفل عنها .

كانت أربع طرود حمراء .. تجاهلتها لسبب أجهله أو تجاهلته .

- أهلاً أحبابي .

كيف تآمرتم على زيارتي معاً في توقيت واحد ؟..

لابد أن في الأمر سراً جميلاً .

تبادلوا النظرات والغمزات .. قال أكبرهم :

- ليس في الأمر أسراراً بل شوقاً لرؤياك .

قلتُ ضاحكاً :

- لا زلت أحتفظ ببقايا فراسة .. لن تستطيعوا خداعي بسهولة .. في وجوهكم سر جميل .. هيا بسرعة فقد أشعلتم نيران فضولي .

سارعت ابنتي إلى المطبخ لتعد القهوة حسب ما خمنت .. لا تزال تحتفظ برشاقتها ومرحها على الرغم من كونها أم لعدة أطفال مشاكسين .. كانت زهرة البيت قبل زواجها .. بعد مغادرتها إلى بيتها الجديد فقد بيتنا هويته ومرحه .. نقلته معها .. لم يعد بيتنا كما كان .. لم يستطع إخوتها ملأ فراغ غيابها رغم محاولاتهم المتكررة ..

سألتهم :

- أين أحفادي ؟.. لماذا لم يأتوا معكم ؟.. أم أن الأمر لا يستقيم بحضورهم ؟

- لا نشك في ذكائك يا أبي .. لا يستقيم الأمر بحضورهم هههه ..

أضاف الأصغر بشيء من الجدية ممزوجة بمرحه المعتاد :

- نعلم أنك متابع جيد لبرنامج ذلك الإعلامي الذي تفضله كثيراً ..

تدخل أوسط أبنائي ليقاطعه :

- كما نتوقع أنك قد تابعت حلقته السابقة عن نقطة التحول .

عاد كبيرهم ليقول :

- لهذا قررنا زيارتك .

- زيارتي ؟.. هل تحتاج زيارتي لإذن من برنامج تلفزيوني ؟ هههه

دخلت ابنتي .. لم تكن تحمل فناجين قهوة كما خمنت .. بل قالباً من الجاتوه بعدة أدوار .. يسيل له اللعاب .. كتبت على أعلى دور فيه عبارة " نقطة تحولنا " .. قالت بعد أن وضعت حملها اللذيذ :

- لأنك نقطة تحولنا جميعاً .. جئنا لنحتفل معك .

عم الصمت .. كل أزواج العيون مسلطة على وجهي .

احتشد الدمع في عينيّ .. لم أكن من قبل رومانسياً ولا عاطفياً .. كانت طبيعتي أقرب للجفاف والصلابة منها للرومانسية .. ربما هذا بطبيعة نشأتي وبيئتي .. قطع أكبر أولادي القالب بمهارة .. ناولتني ابنتي نصيبي منه .. كانت بذلك تفك أسري من تلك العيون المحدقة التي تحاصرني .... قالت :

- بالتأكيد لولا توجيهاتك وإرشاداتك وتربيتك لما صرنا على ما نحن عليه الآن من نجاح في حياتنا .

نقلتُ نظري نحو أصغرهم .. كان مشاكساً متعباً في طفولته .. لكنه الآن يحاول تقمص شخصية الجاد .. المشكلة أن ملامحه تأبى الانصياع لدوره الذي يحاول تقمصه .. قال :

- لا أعتقد أني بحاجة لكثير تفكير .. منذ اللحظة الأولى توصلتُ لنقطة تحولي .. إنه أبي العظيم هههه .. كل رفاقي يحسدونني .. ليس لمنصبي ومكانتي بل لأني ابنك .. يعتبرونني محظوظاً .. كنتُ دائماً ما أقول لهم أن الحظ في كون أبي هو أبي .. يكفي أن تكون أباً لأي أحد ليكون في أحسن حال .. أنت مفخرتي يا أبي هههه .

دموع أخرى تحتشد تطلب فك إسارها لتنهمر .. فررتُ من نظراته نحو شقيقه الأوسط .. كان رزيناً كعادته قال :

- عوضتنا عن غياب أمنا المبكر .. كان غيابها كافياً لانهيار أسرتنا .. لكنك استطعت قيادة السفينة بمهارة قبطان .. لعبت دورك ودورها بمهارة .. صحيح أننا نفتقدها كثيراً .. لكن .....

قاطعته قبل أن ينهار كل شيء :

- وجودها بيننا كان سيجعل الحياة أفضل بكثير .

لا أعلم إن كان كلامي مقنعاً .. لكني أضفت قائلاً :

- ربما كنا نحتفل الآن جميعا بها فهي تستحق أن تكون نقطة تحول مهمة لنا جميعاً .. وجودها في حياتي كان له أثر عظيم .

حل الصمت .. ربما ليتمكن الجميع من السيطرة على المشاعر المتدفقة .. أشرتُ إلى رف الهدايا .

- هذه هدايا وصلتني بعد تلك الحلقة .. كانت قبل مجيئكم حلقة مشؤومة .

تساءلت ابنتي مستهجنة :

- مشؤومة ؟

- نعم .. أصحاب هذه الهدايا يعتبرونني نقطة تحول مهمة في مسار حياتهم ..

- لماذا هي مشؤومة إذاً ؟

- كان وقعها على نفسي أشد من وقع الخناجر .

احتاج مني سرد تلك الوقائع ساعة من الوقت .. رغم نبرة البؤس التي رويتُ بها أحداث تلك القصص إلا أنهم استقبلوها بطريقتهم المرحة .. بل جعلوها مادة للتندر والضحك ما بعث السرور من جديد في نفسي .

حل الصمت من جديد .. هذه المرة بسبب بدء حلقة ذلك المذيع .. لم يكن شاربه المشذب مستفزاً هذه المرة .

لم أتابع الحلقة جيداً .. قدوم أبنائي وتجمعهم حولي أعاد إلى ذهني ذكرياتي مع أمهم رحمها الله .. الآن فقط شعرتُ ولأول مرة أنها كانت نقطة تحول حقيقية لي ..

دخولها لحياتي غير من طباعي .. لم أشعر بذلك وهذا من ذكائها وحسن تصرفها .. لم أتفطن لتبدلي .. لكن الآخرين شعروا بذلك .. أعادت صنعي من جديد .. لم أشعر بذلك في حينه .. لأنه مر ببطء .. دون شعور مني .

بعد أن نبهني الآخرون تفطنت أنها قلمت مخالبي وسلبت مني سيئاتي الكثيرة .. هذبتني بذكاء .. صنعت مني شخصاً آخر ..

المهارة أنها فعلت ذلك بهدوء .. ربما الضجيج سيجعل العملية مستحيلة .. لهذا اخترع الأطباء البنج .. تخدير المريض ضروري ليتيح للطبيب الدخول إلى دخله دون الشعور بالألم .. إنها استخدمت نفس الفكرة .. ولجت إلى داخلي دون شعور مني .. عملت بمشرطها على استئصال زوائدي .. شذبتني .. بعد أن أنهت مهمتها غادرت هذا العالم .

وجودها في حياتي أثر دون شك فيّ .. ربما هو ما أوصلني لما أنا عليه الآن .

شكراً لك جعلت من بيتي جنة .. الآن فقط أشعر بغيابك .. أفتقدك .

رحم الله زوجتي .

فاصل إعلاني للبرنامج أعادني للواقع .. هذا الإعلامي يأبى إلا أن ينغص عليّ لحظات سعادتي حتى في أحلام يقظتي .

تباً .

ابحثوا عن نقاط تحولكم .. لا تبتعدوا كثيراً .. قد تكون قريبة جداً منكم .. حظاً سعيداً .

جرس الباب يدق من جديد !

تمت بحمد الله

٣٠ مارس ٢٠١٧م

إبراهيم عبدالجليل الإمام

كاتب وقاص وروائي وباحث تاريخي ..

من مواليد جوهرة الصحراء غدامس عام ١٩٧٠ م ..

خريج كلية تقنية الطيران والارصاد الجوية ..

نشر قصصه في صحف مختلفة منها صحيفة العرب اللندنية وصحيفة توفرضا ، صحيفة غدامس ، صحيفة الحقيقة ، صحيفة الأيام ، صحيفة المختار ، صحيفة الأسبوع ، صحيفة قورينا ، صحيفة الناس ، صحيفة صناع الكلم ، صحيفة فسانيا ، كما نشر انتاجه القصصي في العديد من المواقع الالكترونية .

صدر له:

قطرات من ذهب	قصص وأساطير	٢٠١٢
سلطان يوم الماء	قصة مصورة	٢٠١٢
جمهورية العسل	مجموعة قصصية	٢٠١٣
ألآم وآمال	قصص ومواقف	٢٠١٣
تحرير غسوف	قصة مصورة	٢٠١٣
لها طلع نضيد	قصة مصورة	٢٠١٣
الشاغت	رواية	٢٠١٥
أشليد	رواية	٢٠١٦
أمم امثالنا	مجموعة قصصية	٢٠١٦
رسالة من الرجل الميت	رواية	٢٠١٦
آيت انج	قصة	٢٠١٦
آيت أدّا	رواية	٢٠١٦
بوابة الصحراء	مجموعة قصصية	٢٠١٦
القادوس	مسرحية	٢٠١٧
ابطال حول غسوف	مسرحية	٢٠١٧

يصدر قريباً :

كنز الاسلاف	رواية
المطبات	من الادب الساخر
نبش قي ذاكرة الماضي	رواية
حجر غدامس	رواية
لحون وشجون	رواية
قطط لاتموء	رواية
يوميات واحد مظوظ	رواية